بلوهر ويوذاسف
قصة تكشف عن أسرار الحياة
كمال السيد
رواية

بسم الله الرحمن الرحيم

بلوهر وبيوذاسف - قصة تكشف عن أسرار الحياة

تأليف: كمال السيّد

تدقيق وتصحيح: الدكتور الشيخ حسين اليوسف

الطبعة: الأولى، ٢٠٢٥م

إعداد ونشر: مؤسسة كلمات للطباعة والنشر

البريد الإلكتروني: kaleemat.pub@gmail.com

جميع حقوق الطبع محفوظة لمؤسسة كلمات

ISBN 978-614-464-289-4

الموقع الرسمي

kamal.alsayeed

الفهرس

في البدء ٩
حكاية الملك الطيب ٤٦
حكاية الأرض الطيّبة ٥١
حكاية الرجل الغافل ٥٣
حكاية السفينة المبحرة والجزيرة ٥٤
حكاية القرناء الثلاثة ٥٨
حكاية المملكة الغريبة ٦١
حكاية الرجل الدليل ٧٨
حكاية الملك والأرض المَوات ٨٢
حكاية الطائر «قرلي» ٨٣
حكاية الملك العاقل والوزير الكامل ٨٩
حكاية الفتى الغني الذي تزوّج فتاة فقيرة ٩٥
حكاية الرجل والعصفور ١٠٠
حكاية الملك الجبّار ١٢٠
حكاية الملك الذي طغى ١٣٤
حكاية الملك وابنه ١٣٩
حكاية الأمير السكران ١٤٨
حكاية اللصوص والصندوق الذهبي ١٤٩
حكاية ابن الملك الأسير ١٥١
حكاية رجل في جزيرة الغيلان ١٥٤
هكذا تكلّم يوذاسف ١٦٦

إلى شهيد العصر.. محمّد باقر الصدر؛

سوف تبقى أصداء صرخته وكلماته..

تتردّد بين أعمدة القرون وجدران الزمن..

ما هي الدنيا؟!

مجموعة من الأوهام!!

لكنّ دنيانا أكثر وهماً من دنيا الآخرين..

في البدء

إنني واثق تماماً بعد كلّ هذه السنين أن ثمّة حياة أخرى إلى جانب حياتنا الماديّة، لها لذائذها ومتعها وعالمها الخاص؛ بل لا أشك أيضاً بأن ما فيها من المتع أثرى بكثير؛ ذلك أننا نرى مشاهد لأناس يجدون لذتهم في الصلاة في وقت السحر حيث حلاوة النوم، ومشاهد أناس يجدون متعتهم في التضحية والفداء والدفاع عن المقهورين.

فكما أن للشبع إحساس باللذة، فإنّ في الجوع وإيثار الجائع بالطعام شعور باللذّة، لذّة الانتصار على الذات والتمرّد على نداء الغريزة الحيوانيّة؛ حيث إنّ الاستجابة لنداء الضمير ونداء الإنسان له متعته.

ثمّ هذه الرؤى التي يراها المرء أحياناً أليست شاهداً على هذه الحياة؟

ومن خلال تجربتي الشخصيّة، أكاد ألمس وجود هذه الحياة، وما أكثر الرؤى التي لا يمكن تفسيرها في ضوء نظريّات فرويد وغيره.

ما معنى أن يرى النائم بحراً أسود المياه، ورغم صغره الذي قد يناهز في سعته الحوض العادي؛ إلاّ أنه هائج الأمواج، والناس يقذفون بأنفسهم فيه، فإذا بالأمواج فيما بعد تلفظهم عراة يتساقطون على أدبارهم!! حقاً ما معنى هذه الرؤيا؟!

وما معنى أن يجد الإنسان نفسه وقد حلّق في الفضاء خفيفاً؛ بل في حالة انعدام كامل من الإحساس بالوزن مع شعور فياض لا يوصف بالسعادة وانطلاق في فضاء واسع جدّاً حيث تبدو الأرض بحجم برتقالة أو حبّة زيتون؟!

أجل ثمّة حياة روحيّة إلى جانب الحياة الماديّة التي تستغرقنا، لا يفصلنا عنها سوى غشاء رقيق جداً له غشاوة، وهذا العالم المجاور المفعم بالمتع تنطلق فيه الروح دون قيود وتختفي فيه كل أشكال الضجيج والصخب، فهو مفعم بجلال الصمت والسكينة؛ والذي يغوص شبراً واحداً تحت الماء يشعر بانعدام الضجة فجأة فكيف بالأعماق!

- إنّ هذا الكتاب يتضمّن ـ ربما ـ دعوة لتجربة الانتقال؛ وهو انتقال صعب دون شك إذ يتوقّف على إرادة الإنسان ورغبته الحقيقيّة أو قل إيمانه بذلك.

وحسب معطيات التجربة فإن أوّل خطوة هي الالتزام ببرنامج للصلاة بمفهومها الواسع والبدء ببرنامج غذائي أقرب ما يكون للصوم بحيث يعيد المعدة إلى حجمها الطبيعي إلى جانب التأمّل في مفردات الطبيعة والغوص إلى روحها المستتر.

هنالك يتوقّد الذهن وتتوهج الروح ويكون الإنسان على أتم الاستعداد لاختراق الغشاء والتجوال في عالم مفعم بالمسرّات؛ عالم حقيقي وليس ما تفرزه الأوهام.

ذلك أنّ الدنيا هي في حقيقتها، وكما قال الصدر، مجموعة من الأوهام، لكنّ دنيانا أكثر وهماً من دنيا الآخرين.

بلوهر ويوذاسف الحكيم وابن الملك

على سفوح جبال الهملايا يجثم قصر كبير كما يجثم نسر عظيم فوق صخرة في الجبل، القصر تحيطه جدران شاهقة فيحسبه المرء قلعة عظيمة، هكذا أراد

ملك الهند العظيم «ميهراغولا» أن يكون قصره رمزاً لسطوته وأبّهته ومملكته «سولابط» التي تمتدّ شرقاً إلى «جامبا» وغرباً إلى تخوم «كشمير».

ولم تكن سولابط هكذا في زمن مضى؛ بل كانت مملكة صغيرة ناشئة. ورث «ميهراغولا» الحكم عن والده الذي أسّس هذه المملكة الواسعة وأخضع الشعوب لحكمه، وكان في غاية القسوة، فنشأ ميهراغولاً قاسياً عنيفاً لا يعرف غير السطوة والأمر والنهي، ولا يرضى من شعبه إلا الطاعة المطلقة.

استيقظ ميهراغولا في ذلك الصباح وقد أشرقت الشمس وغمرت الوديان الخضر بأشعّتها الذهبيّة وتوهجت تماثيل الآلهة النحاسية وخاصّة إله الرعد «ايندرا»، فقد كان مصقولاً بعناية فائقة حتى أن من يراه يحسبه من الذهب الخالص.

لم يكن «ميهراغولا» ليعتقد بالآلهة العديدة في بلاد الهند، لكنه وجد في ترسيخ نفوذها في قلوب الناس وسيلة لترسيخ قدرته وحكمه، لهذا فهو ينظر إليها أحياناً بامتنان؛ لأنها وبصمتها ونظراتها البلهاء تقدّم له خدمات كبرى تعجز الجيوش أحياناً عن تقديمها.

كم أخمد من الثورات، وكتم من الأنفاس، وكمّم من الأفواه، وأزهق من الأرواح؟! فانقاد له العباد ودانت له البلاد. إنّ هذه التماثيل وإن كانت ساكتة لا تنطق وهامدة لا تتحرّك؛ إلا أنّ لها من القوة والسطوة بحيث كانت جزءاً هامّاً من أجهزة حكمه ونفوذه.

وقد كان «ميهراغولا» شابّاً قويّاً؛ مفتول الساعدين، ضخم الجسم، في وجهه عينان تقدحان شرراً، إذا نظر إلى أحدهم شزراً، انخلع قلبه، وكان قوي الصوت، إذا صرخ تردّدت صرخته في جنبات قصره الكبير وارتدّت عند جدرانه العالية.

اليوم هو يوم فريد سوف يلقي بأربعة فيلة كبيرة إلى أعماق الوادي، سوف تتمزّق أشلاؤها عضواً عضواً قبل أن تصل إلى قرارة الوادي السحيق! وربما لن تصل، فالصخور النائتة كالسكاكين الحادّة سوف تتخطّفها.

لكن لماذا؟! هل افترست أحداً فتعاقب؟ أ ليس الفيل حيوان طيب هادئ يتغذى على الحشائش والأوراق؟ هذه هي مشيئة الملك الهندي العظيم ميهراغولا!!

يقال إنه يجد لذّة كبرى في ذلك.. وإنه يشعر بالانتشاء وهو ينظر إلى الفيلة تهوي إلى أعماق الوادي السحيق.

ويقال إنه يشمئزّ من الفيل؛ لأنّه مع قوّته وضخامته لا يفترس، لأن من مقتضيات القوّة والقدرة العنف والافتراس، هذا هو قانون الحياة، هذا هو قانون الغاب وقانون البحر!

ويقال إنّ الملك يريد من وراء ذلك إلقاء الرهبة في قلوب الناس؛ فتصاب بالهلع والخوف.

والإنسان عندما يخاف يضعف لديه مركز التفكير أو يفكّر بطريقة غير منطقيّة؛ لأنّ الأوهام والخيالات تنفذ إلى رؤاه، وحينئذ يتصوّر الحاكمَ بعبعاً ويرى الفيل فأرة؛ فتنسحق نفسه وتنهار إرادته ويتنازل بسهولة عن حريته وكرامته.. سيكون هدفه البقاء حيّاً وتصبح الحياة القيمة العليا التي ينشدها بأيّ ثمن.. أجل بأيّ ثمن!

وصل موكب الملك إلى مكان صخري يتيح له رؤية الفيلة وهي تسقط في الهاوية.

كانت الفيلة قد أُوقفت على حافة الوادي وظهورها إلى الهاوية، وكانت مجموعة من الجنود يقودها ضابط تنتظر إشارة «ميهراغولا» الذي رفع سوطاً قانياً ثمّ أهوى به، فصدر صوت مريع أثر انشقاق الهواء والتواء السوط في الفضاء.

ألقى الجنود بعشرات الجرذان والفئران أمام الفيلة المسكينة التي كانت واقفة بهدوء وسكينة، ارتاعت الفيلة لمنظر الجرذان وارتدّت إلى الوراء إلى حيث

الهاوية السحيقة، واستحالت الصخور النائتة إلى أنياب تتخطّف لحوم الفيلة وتهشم عظامها.. واختلطت أصواتها مع قهقهات «ميهراغولا».

كانت بعض الوجوه قد علتها ملامح ألم وحزن، وبعضها كان يماشي بهجة الملك وسروره تزلفاً وتملّقاً باستثناء وجه الوزير الذي احتفظ بسحنة جامدة لا تعبّر عن عاطفة أو شعور ما!

إنه الوزير القدير موهان الذي كان يعمل ليل نهار في إدارة شؤون البلاد وسياسة العباد، قد كفل أمور الدولة وحمل مسؤولية إدارة دَفّة الحكم، وكان وفياً لا يخون، وصدوقاً لا يكذب، ومخلصاً في عمله، ولا يدّخر شيئاً من علمه.

وكان مع كل ذلك رجلاً لطيفاً في كلامه وترى في وجهه الطلاقة؛ قد توسم الناس فيه الخير، فأحبّوه وأمنوا منه الشر فرضوا به؛ إلا أقارب الملك وأزلامه، فقد أجمعوا على مقته حسداً، وتآمروا عليه بغياً، واستثقلوا مكانه ومكانته حقداً، وكان الملك يعرف قدره ويقدّر موهبته ويحترم آراءه ويثق فيه.

وكان الملك مهيباً في نفوس الناس بعد أن قهر الأعداء، فانصرف إلى حياة السرّاء يأكل ممّا لذ وطاب مستغرقاً في الشهوات قد أسكره الشباب والمال والثراء والحكم والسلطان، فانقاد إلى الأهواء وحياة اللهو والعبث والسرّاء.

وكان أحبّ الناس إليه من يزيّن له حاله ويمجّده ويتملّق إليه ويثني على آرائه في كلّ قول وفعل، وأبغض الناس إليه الذي ينصحه ويبيّن له خطأ ما هو عليه ويحذّره من عاقبة أمره.

قد أسكره الشباب والمُلك وكثرة ما كرع من كؤوس النصر على الأعداء حتّى انقاد له العباد ودانت له البلاد، فأعجب بنفسه وبما هو عليه من القوّة والبأس، واستطال على جميع الناس واحتقرهم، ثمّ ازداد إعجاباً بنفسه ورأيه لما مدحه المادحون وزيّن له أعماله المتملّقون.

فكان لا همّ له إلا الدنيا ولذّاتها، وكانت الدنيا مؤاتية لا يطلب منها شيئاً إلا ناله، إلا شيئاً واحداً استعصى عليه وأورثه غيظاً يتجرّعه وهمّاً يعالجه، كان يريد ولداً ذكراً يورثه ملكه وسلطانه إلا أنه كان مئناثاً لا يلد له إلا أنثى.

ولمّا رأى الملك أن الذين يخضعون له ويتملّقونه هم من عبدة الأصنام والأوثان، قرّبهم وأدناهم وأبعد أهل الدين وأقصاهم لمّا رأى منهم عدم الرضا، فصنع الأصنام من الفضّة والذهب وأظهر لها العبادة وشجع على عبادتها ورغّب وقرّب عبدة الأصنام.

ولمّا رأى الناس ذلك من الملك سارعوا إلى عبادة الأوثان والاستخفاف بأهل الدين؛ وقد قيل إنّ الناس على دين ملوكهم ينظرون إليه ويقلّدون ولكلّ ما يقوله يطيعون.

وذات يوم

وفي يوم من الأيّام وقد وقف أركان مملكته وقادته وأعيان دولته، راح يتصفّح وجوههم الواحد بعد الآخر حتّى استقرّ بصره على وجه وزيره القدير موهان. وكان الملك قد تذكّر رجلاً له عقل ودراية، فأراد استشارته في أمر من أمور المملكة وينتدبه للقيام بمهمّة من المهام، فقال للوزير:

- أين بلوهر الحكيم؟ فقد مرّت شهور لم أره فيها، هل يمنعه الحُجّاب من الدخول عليّ؟ ولقد أمرت أن يدخل عليّ في أيّ وقت شاء؟!

قال الوزير بوقار:

- يا مولاي الملك! إنّ بلوهر الحكيم قد خلع الدنيا وزهد فيها، ولحق بالنسّاك في رؤوس الجبال وقد انقطعت أخباره، فلا نسمع عنه شيئاً ولا نعلم أ حيّ هو أم مات.

فتميّز الملك غيظاً ممّا سمع؛ لأنّه أراد أن يستعين به على شؤون مملكته؛

فقال:

- عليّ به؛ أرسل إليه من يحضره، فإن استطعت أن ترسل إليه النسور أن تحمله وتأتي به، فافعل.

ولما عرف الوزير الجدّ في طلب الملك انحنى وقال:

- أنا آتيك به يا مولاي الملك!

وانطلق الوزير ومعه رجاله يتقصّى الأثر ويتعرّف الخبر؛ إلى أن وصل وادياً مليئاً بالشجر، فرأى رجلاً قد أصابته القروح في رجليه، ملقىً عند جذع شجرة لا يستطيع من أمره شيئاً، فسأله الوزير: ما شأنك وماذا جرى لك؟

فقال الرجل: بينا أنا أريد الاصطياد أصبحت صيداً، وبينا كنت أرصد الصيد إذا بالنمر يرصدني وأنا في غفلة من أمري، وهكذا الدنيا.

فأشفق الوزير على حاله ورقّ له، فقال الرجل:

- ضمّني إليك واحملني إلى منزلك فانّي أنفعك في عمل لا يقوى عليه غيري.

فقال الوزير:

- لقد أشفقت عليك وسآخذك إلى منزلي وإن لم أجد عندك نفعاً؛ ولكن يا هذا ما نفعك وأنت في هذه الحال؟ هل تحسن عملاً أو تعرف صنعة؟!

فقال الرجل:

- نعم؛ أنا أرتق الكلام.

فقال الوزير:

- وكيف ترتق الكلام؟!

قال الرجل:

- إذا كان فيه فتق، فإني أرتقه حتّى لا يجيء من ذلك الفتق ضرر أو فساد يصيب المتكلّم.

قلب الوزير شفته؛ لأنّه لم ير في قول الرجل شيئاً يعتدّ به، وقال:

- يا هذا! انّي ذاهب في أمر الملك، وقد وكّلت بك اثنين من رجالي يحملانك إلى القصر، ثمّ إنّ الوزير أوصى به وأن ينزلاه في حجرة ويعتنيا به، وانطلق مع سائر رجاله إلى قمّة جبل قيل إنّ الرجل الحكيم يتنسّك فيها ويعبد.

الحكيم والملك

كان الملك جالساً فوق عرشه عندما أُدخل الحكيم بلوهر، كان يرتدي ثوباً أبيض قد لفّ به جسمه وعقده عند رقبته، فلمّا رآه الملك في هذا الزيّ بان الشرر في عينيه، وقال:

- ما كنت أصدّق أنك بهذا الحال حتّى رأيتك، وقد كنت أحسب أن لديك عقلاً يرشدك، فإذا أنت لا عقل لك، وبينا كنتَ من أعيان مملكتي وأشرافهم إذا أنت تفضح نفسك وتضيّع أهلك وجاهك، واتّبعت أهل البطالة وممّن لا شغل لهم، وصيّرت نفسك أضحوكة وقد كنت أعددتك للمهام من أمور الدولة؛ فتكون وزيراً أستعين بك على شؤون الحكم وإذا أنت رجل بائس خاسر لا نفع فيك ولا خير أرجوه منك، وأنت عندي رجل مذنب يستحق العقاب.

فقال بلوهر بوقار الحكماء:

- أيّها الملك! إن لم يكن لي عليك حق، فلعقلك عليك، وإني أرجو أن تستمع إلى قولي وتصغي إلى كلامي من غير غضب ولا حنق، ثمّ تأمر

بما بدا لك في أمري، وذلك بعد الفهم والتثبت؛ فإنّ الغضب عدو العقل، ولذلك يحول بينه وبين الإدراك والفهم.

قال الملك ببرود:

- تكلّم وقل ما بدا لك.

فقال الرجل الحكيم:

- أيّها الملك؛ إنّي أسألك عن السبب في عتابك عليّ! أ في ذنبي على نفسي أم في ذنب منّي إليك مضى ثمّ ذكرته؟!

قال الملك:

- إنّ ذنبك إلى نفسك هو أعظم الذنوب عندي.. اعلم أيّها الرجل الخاسر إنّك لست حرّاً تفعل ما تشاء، فأنت واحد من رعيّتي، ورعيّة الملك هم عبيده، أ فكلّما أراد رجل من رعيّتي أن يهلك نفسه أدعه يفعل واخلّي بينه وبين ذلك؟! إنني أعتبر أي عمل ضدّ النفس كالعمل ضدّ الغير، وانّ إلقاء نفسك في التهلكة يعني أنك كمن تهلك غيرك من الرعيّة؛ لأنّني وليّكم جميعاً والحاكم عليكم، فأنا أحكم عليك لنفسك وآخذ لنفسك منك لأنّك ضيّعت نفسك.

قال الحكيم:

- أراك أيّها الملك تحتجّ عليّ بالدليل والبرهان والحجّة، والحجّة لا تنفذ إلا عند قاض، وليس عليك من الناس قاض، ولكن عندك قضاة وأنت لأحكامهم منفّذ، وأنا راض ببعض هؤلاء القضاة وخائف مشفق من بعض آخر.

قال الملك:

- ومن هم أولئك القضاة الذين تذكرهم؟

قال الحكيم:

- أمّا الذي أرضى بقضائه فهو عقلك أيّها الملك، وأمّا القاضي الذي أخاف منه فإنه هواك.

قال الملك :

- قل ما بدا لك وأصدقني في قصّتك، ومتى كان هذا رأيك؟ ومن الذي أغواك فانتهى أمرك إلى هذه الحال؟

هذه الدنيا!!

قال الحكيم :

- أمّا قضيّتي أيّها الملك، فإني كنت فتى في مقتبل العمر سمعت كلمة فكانت مثل الحبّة والبذرة وقعت في قلبي فنبتت ونمت وأورقت وأزهرت، فصارت شجرة وصارت ما تراه الآن واقفاً أمامك.

قال الملك:

- وما الذي سمعت فصرت إلى ما أرى؟!

قال الحكيم:

- سمعت قائلاً يقول: يظن الجاهل الأمر الذي هو «لا شيء» شيئاً، والأمر الذي هو شيء لا شيء، وأنّ الذي لم يرفض «اللا شيء» لم يحصل على الذي هو «شيء»، وأنّ من لم يبصر الأمر الذي هو «الشيء» لم تسمح نفسه برفض الأمر الذي هو «لا شيء»!

قال الملك بحيرة:

- ماذا تقول؟ ما هذا «الشيء» و«اللا شيء»؟!

قال الحكيم:

- أيّها الملك؛ «الشيء» هي الآخرة، و «اللا شيء» هي الدنيا، فاستقرّت هذه الكلمة في فؤادي وأضاءت لي الطريق في حياتي.

قال الملك:

- وكيف؟!

قال الحكيم:

- لأني وجدت الحياة في الدنيا موتاً، والغنى فيها فقراً، والفرح بها حزناً، ورأيت الصحّة فيها تنتهي إلى الأسقام، ورأيت القوّة فيها تنتهي إلى الضعف، وعزّها يؤول إلى الذل، وكيف لا تكون حياتها موتاً والإنسان يقترب في كلّ لحظة من الموت خطوة؟! فهو يحيا ليموت، والإنسان من الموت على يقين، وهو سائر نحوه ومصيره إليه، وهو يقترب منه وينأى عن الحياة ويبتعد عنها في كلّ لحظة خطوة، وكيف لا يكون الغنى فيها فقراً؟!

قال الملك:

- وكيف يكون الغنى فيها فقراً؟

قال الحكيم:

- لأن من يحصل على شيء من هذه الدنيا احتاج إلى أشياء أخرى تلزمه في الحفاظ على ما حصل عليه.

ومثال ذلك أنّ الرجل يحصل على فرس، فإذا حصل عليه احتاج إلى أن يوفر لفرسه العلف والقَيّم والمربط وما يشتمل عليه من الأدوات، ولكلّ شيء

من هذه الأشياء شيء آخر يصلحه، وهكذا تتعدّد حاجاته وتكثر، فهو في حاجة مستمرّة، فمتى تنتهي حاجاته وهي تتفرّع؛ كلّما حصل على شيء تولّدت حاجات لذلك الشيء.

قال الملك:

- وكيف يكون فرحها حزناً وترحاً؟

قال الحكيم:

- وكيف لا يكون كذلك وهي بالمرصاد للناس؟! فهذا رجل قرّت عينه بمولود ولد فهو مسرور بولده والدنيا ترصد له حزناً أضعاف سروره؛ إذا مرض الولد أو أصابه سقم أو مات أثر علّة، فإذا بفرحه يصبح حزناً، وإذا بسروره يصير همّاً يكابده وأسىً يذويه.

وإن رأى السرور بثروة يحصل عليها، أمسى وهو مهموم يخشى على ثروته التلف والزوال، فينتابه القلق وتعصف به الهواجس؛ فإذا همومه من زوال ثروته أضعاف سروره بها.

فإذا كان الأمر كذلك، فحقّ على الإنسان أن لا يطمع بشيء منها.

وكيف لا يكون صحّتها سقماً وهذه الدماء تجري في عروق الإنسان؟! فان توقفت أصيب بالسكتة والموت فجأة؛ وهو بعدُ معرّض للإصابة بالوباء والذبحة وأنواع الداء.

وكيف لا تكون قوّتها ضعفاً والمرء يسير إلى الضعف وينتهي به المطاف إلى العجز؟! فإذا به ساكن بعد حراك.

وأحقّ الناس بذمّ الدنيا مَن أقبلت عليه وأعطته كلّ ما أراد ونال كلّ شيء فيها، فهو يتوقّع في كلّ يوم وليلة وفي كلّ ساعة ولحظة أن يفقد ثروته أو يُختطف عزيزه وحميمه أو تشتت جموعه، ثمّ يهاجم صرحه الذي بناه من

قواعده ودعائمه، فينهار سقفه ويدبّ الموت إلى جسمه وجسده؛ وإذا هو راحل عن هذه الدنيا التي لا تبقى لأحد ولا يبقى لها أحد.

فإني أيّها الملك أذم إليك هذه الدنيا التي تأخذ ما تعطيه، وتورثه بعد ذلك التبعات، والتي تسلب من تكسوه وتورثه بعد ذلك العري، والتي تضع لمن ترفع، وتورثه بعد ذلك الجزع، والتي تترك من عشقها وتورثه بعد ذلك الشقاء، والتي تغوي من أطاعها واغترّ بها، والتي تغدر بمن ائتمنها وركن إليها.

وهي أيّها الملك الدابّة الجموح، والرفيق الذي يخون، والطريق الزلق، والهاوية السحيقة.

وهي أيّها الملك التي لا تكرم أحداً إلا أهانته، والمحبوبة التي لا تحب أحداً، التي تغدر بمن وفى لها، والتي تكذب على من صدق لها، والمعوجة لمن استقام لها، واللعوب التي تتلاعب بمن استمكنت منه.

ألا تنظر أيّها الملك إليها كيف تطعم الإنسان ثمّ تجعل منه طعاماً مأكولاً؟! وتخدمه ثمّ تجعل منه خادماً؟! وتضحكه ثمّ تضحك منه؟ تبسط يديها فتعطيه، ثمّ تبسطها فتسلبه ما أعطت، وبينا هو عزيز إذا بها تذلّه، وبينا هو مكرّم إذا بها تهينه، وبينا هو فيها معظّم إذا بها تحقّره، وبينا هو في مقام رفيع إذا بها تنزله ليصير وضيعاً، تطيعه ثمّ تعصيه، وتسرّه ثمّ تنغص عيشه، وبينا هو فيها شبعان إذا بها تجوّعه، وبينا هو فيها حي إذا بها تميته.

هكذا تفعل الدنيا بأهلها أيّها الملك؛ فأف لها من دار هذه أفعالها وهذه صفاتها، تضع التاج على رأسه في الصباح ثمّ تعفّر خدّه مساءً بالتراب، وتضع أسورة الذهب في يديه صباحاً ثمّ تجعل فيها الأغلال والسلاسل في المساء، وتُجلس الرجل على سرير الملك غدوة ثمّ ترميه في السجن عشية، تفرش له الحرير عشيّة وتفرش له التراب غدوة، وتجمع له الملاهي والمغنّيات فيغنين له ويرقصن صباحاً، وتجمع عليه النوائح والنوادب يلطمن عليه في المساء.

تطيب ريحه غدوة وتنتن ريحه عشية، لا يأمن سطواتها، ولا ينجو من فتنتها وبلائها أحد.

فبينا هو مشغول بها يمتّع نفسه بأحاديثها، ويجيل بصره في عجائبها، ويملأ يديه ممّا فيها؛ إذا بكفّيه تصبح صفراً، وبعينيه هامدتين وقد ذهب ما ذهب وهوى ما هوى وباد ما باد وهلك ما هلك.

وأجيال البشر قوافل؛ تحط قافلة رحلها وترحل أخرى؛ فترى أحدهم يفتح رَحْله وترى الآخر يشدّ الرحل، وتبدل قوماً مكان قوم.

تخلي الدور من ساكنيها وتأتي بغيرهم، تنقل ناساً من الأرض القاحلة إلى الأرض الخصيبة وتركبهم المراكب الفارهة بعد أن كانوا حفاة يمشون وكانوا بؤساء؛ فإذا هم أغنياء قد نقلتهم من الشدّة إلى الرخاء ومن الشقاء إلى الثراء؛ حتّى إذا انغمسوا في متعها واستغرقوا في لذائذها، انقضّت عليهم بمخالبها فسلبتهم الخصب والقوّة، فعادوا إلى بؤسهم وفقرهم وجدبهم.

وأمّا قولك أيّها الملك إنني ضيّعت أهلي وتركتهم، فإنّي لم أضيعهم ولم أتركهم؛ بل وصلتهم وانقطعت إليهم، ولكنني كنت أنظر إليهم بعين مسحورة لا أعرف الأهل من الغرباء ولا أميّز بين الأعداء والأصدقاء؛ فلمّا زال السحر عن عيني إذا بي أنظر بعينين نافذتين، فعرفت العدو من الصديق والقريب من الغريب؛ فإذا الذين كنت أعدّهم أهلي وأصدقائي وإخواني، إذا بهم حيوانات ضارية لا همّ لها إلا أن تأكلني وتتخطّف جسمي، وهم يختلفون باختلاف قواهم؛ فبعضهم كالأسُود في شدّة صولتها، وبعضهم كالذئاب في غارتها، وبعضهم كالكلاب في هريرها وبصبصتها، وبعضهم كالثعالب في حيلتها ومكرها.

ولو انّك أيّها الملك نظرت بهذه العين النافذة إلى ما أنت فيه من عظمة ملكك واتّساع مملكتك وكثرة أتباعك وجنودك وحاشيتك؛ لعرفت أنك في حقيقة أمرك وحيد فريد ليس معك أحد من بين جميع أهل الأرض؛ لأنّك تعرف

جيداً أنّ جميع الأمم عدوة لك، وأنّ هذه الأمة التي تسلّطتَ عليها كثيرة الحسد.

قد ناصبَتك العداء وهي أشدّ حنقاً عليك، وهؤلاء الذين حولك إنما يعملون بأجر وهم يسعون إلى التقليل من عملهم والاستزادة من الأجر الذي فرضته لهم، وكلّهم يعتقد أنّك حرمتهم، فهم يظهرون الرضا ويضمرون السخط.

أفلا ترى أيّها الملك كم أنت وحيد وفريد؟!

أمّا أنا أيّها الملك، فإن لي أهلاً ومالاً وإخواناً وأخوات وأصدقاء لا يأكلونني ولا يأكلون بي، يحبونني وأُحبّهم؛ فالحب بيننا قائم، يتصحونني وأنصحهم؛ فلا غشّ بيننا، ويصدّقونني وأصدّقهم؛ فلا تكاذب بيننا، ويوالونني وأواليهم؛ فلا عداوة بيننا، ينصرونني وأنصرهم فلا تخاذل بيننا، يطلبون الخير الذي إن طلبته معهم، لم يخافوا أن أستأثر به وحدي وآخذه لنفسي؛ فلا تحاسد بيننا، يعملون لي وأعمل لهم بأجور لا تنفد ولا يزال العمل قائماً بيننا.

هم الهداة لي عندما أضلّ الطريق، وهم النور لبصري إذا عَميت، وهم حصني إذا هُوجمت، والمجنّ إذا رُميت، وهم أعواني في الشدائد والأزمات؛ وقد تركنا الدنيا لأهلها لمّا رأينا فيها التكاثر والتباغض والتحاسد والتقاطع.

فهؤلاء أيّها الملك أهلي وإخواني وأحبّائي وأصدقائي، أحببتهم واستأنست بهم وانقطعت إليهم وتركت الذين كنت أنظر إليهم بالعين المسحورة لمّا عرفتهم على حقيقتهم، وهربت منهم أنشد السلامة من شرورهم.

أيّها الملك! هذه هي الدنيا التي أخبرتك أنها «لا شيء» وهذا هو نسبها وحسبها ومسيرها ومصيرها؛ قد رفضتها بعد أن عرفتها، واكتشفت الأمر الذي هو «الشيء»، فإن كنت تحبّ أيّها الملك أن أصف لك ما أعرف من أمر الآخرة التي هي «الشيء» فاستعدّ إلى السماع، فإنّك ستسمع مني غير ما كنت تسمع به من الأشياء.

وسكت بلوهر الحكيم ينتظر ردّ الملك الذي ازداد حنقه على الحكيم.

قال الملك:

- لقد جمعت إلى جنونك الكذب والدجل، أنت لست إلا كذاباً لم تحصل على شيء سوى الشقاء والعناء، وسأطردك عن مملكتي لأنّك فاسد مفسد.

وأمر الملك بنفي الحكيم إلى خارج حدود المملكة، وألاّ يُسمح له بالعودة أبداً؛ فهجم عليه الحرس وجرّوه من البلاط جرّاً، ثمّ وضعت في عنقه آلة من الخشب تجمع يديه إلى عنقه وسيق إلى خارج الحدود.

ولمّا وصل إلى ساحل البحر أركبوه سفينة مبحرة إلى جزيرة «سرنديب»، ثمّ أمروا الملاّحين أن يلقوه في تلك الجزيرة فهو ممّن غضب الملك وحكم عليه بالنفي إلى خارج المملكة.

وهذا ما كان من أمر بلوهر الحكيم، فإنه عاش في جزيرة سرنديب وانقطعت أخباره فلم يسمع عنه شيء.

يوذاسف

وذات يوم خرج الملك في رحلة صيد، وفيما هو يصطاد جاءته البشرى بولادة ذكر، وذلك بعد يأس، فما كان منه إلا أن ألهب فرسه بالسوط عائداً إلى قصره، ولمّا وصل ورأى ابنه كاد يموت من شدّة الفرح، ولم ير الناس مولوداً مثله قط في حسنه وجماله، فقد كان يسطع بالنور، ولم يفرح الملك في حياته مثل ذلك اليوم، وأعلن للناس أن الآلهة التي يعبدها هي التي وهبت له هذا الصبي.

وأمر بفتح الخزائن، وراح ينفق على المعابد وملأها بالطعام والشراب، فتهافت الناس عليها أكثر من ذي قبل، وجمع المنجّمين والعلماء وكهنة المعابد لتقويم ميلاده، وسمّى ابنه «يوذاسف».

واجتمع المنجّمون ينظرون في تقويم ميلاد يوذاسف ونظروا في النجوم والأبراج وتبادلوا الآراء في ذلك؛ فأجمعوا على أنّ هذا الصبي سيبلغ المجد والشرف والعلا، وسوف لن يدانيه في أرض الهند كلّها في ذلك أحد أبداً، واتّفقوا على ذلك جميعاً، ثمّ جاءوا إلى قصر الملك ليخبروه.

فقال كبيرهم:

- أيّها الملك إنّ ليوذاسف من المجد والرئاسة ما لا يبلغه أحد في أرض الهند، وإنه سيكون رئيساً عظيماً.

وراح الملك ينظر في وجوههم واحداً بعد الآخر فيرى رأيهم؛ فكان رأيهم واحداً؛ إلا أحد المنجّمين، فانّه قال:

- أيّها الملك! ما أظنّ الشرف والمجد الذي سيبلغه الصبي إلا شرف الآخرة، وإنه سيكون له مجد في الدين والنسك، وذا فضيلة في درجات الآخرة، وإنّي رأيت في النجوم أنّ الشرف الذي يحوزه لا يشبه شيئاً من شرف الدنيا، والمجد الذي سيبلغه هو شبيه بشرف الآخرة ومجدها.

قال الملك:

- أ واثق أنت ممّا تقول؟!

قال المنجّم:

- كلّ الثقة.

وكان الملك يثق بذلك المنجّم ويراه أعلم من غيره بالنجوم والتقويم.

وأشار الملك للمنجّمين بالانصراف، فانحنوا له وغادروا القصر، وجلس الملك حزيناً مهموماً يفكّر؛ قد نغّص كلام المنجّم عليه سروره بميلاد يوذاسف، ونظر إلى وزيره يطلب منه المشورة.

قال الوزير وقد أدرك ما يعانيه الملك من الهم:

- أيّها الملك؛ إنّ لي في ذلك رأياً أرجو أن يبدد هموم الملك.

قال الملك:

- وما رأيك؟

قال الوزير:

- أرى أن تخلي للصبي مدينة من المدن ثمّ توكّل به من الخدم الثقات وتأمرهم بأن لا يذكروا فيما بينهم الموت والآخرة والحزن والمرض والفناء؛ حتّى يعتادوا على ذلك وينسوا هذه الأمور؛ وحينئذ ينشأ الغلام وهو لا يعرف ما الآخرة وما الموت وما المرض وما الدين ولا يعرف شيئاً غير الملك والدنيا.

وكان وجه الملك مقطباً، فلمّا سمع ذلك انفرجت أساريره وأيقن أنه قد وجد الحل، فنهض من فوق عرشه الضخم، وأخذ بيد وزيره القدير إلى صخرة تطلّ على واد أخضر، وأشار إلى مدينة صغيرة تقع فوق التلال وقال:

- أريد أن ينشأ يوذاسف في هذه المدينة، أريد أن تكون جنّة وارفة الظلال لا يُذكر فيها موت ولا مرض ولا فناء ولا دين ولا نسك إلا الدنيا والملك.

انطلِق أيّها الوزير وهذه خزائن المملكة رهن إشارتك.

انحنى الوزير وقال:

- سمعاً وطاعة لمولاي الملك.

وبدأ العمل فوراً، وتمّ إخلاء المدينة، ونقل يوذاسف ومعه المراضع والخدم وكلّهم من حسان الوجوه والشبّان والفتيان والفتيات؛ تطفح على وجوههم النعمة والصحّة والعافية، وغرست المدينة بالأشجار المثمرة، وأجريت في أرضها

السواقي والجداول، وما أسرع أن حطّت فيها الطيور وانبثّت فيها الفراشات تدور.

وكان الملك قد عهد بتربية ابنه إلى رجل من رجاله المخلصين وأسماه الحاضن؛ لأنه يحضن ابنه ويربيه، وأوصاه بأن ينشئ ابنه على أخلاق الملوك، وشدّد عليه في مراقبة الخدم وأعمالهم والانتباه إلى أقوالهم؛ فلا تُذكر أشياء غير الدنيا والملك، وحذّره من ذكر الدين والنسك، فامتثل الحاضن لذلك.

وهكذا نقل يوذاسف إلى تلك المدينة لينشأ كما شاء أبوه الملك، ولم يطمئن الملك إلى ما فعل حتّى بثّ بينهم الجواسيس، وجعل بعضهم يراقب بعضاً لئلاّ يتساهلوا في الأمر ويخطئوا في القول والفعل. كلّ ذلك حتّى لا يطرق سمع ابنه من كلام الدين والآخرة، فازداد حقده على النسّاك، فأمر بنفيهم من مملكته وبلاده، فلاحقتهم الشرطة في كلّ مكان حتّى الذين يسكنون في قمم الجبال؛ فلم يتركوا ناسكاً إلا ونفوه. كلّ هذا والعمل في المدينة يجري على قدم وساق.

المؤامرة

ولمّا رأى أقرباء الملك المنزلة التي حظي بها الوزير، تآمروا عليه وأجمعوا على الكيد له، فدسّوا رجلاً منهم زعم أنه ناصح للملك؛ فدخل عليه وقال:

- أيّها الملك إنّ هذا الوزير يطمع بالاستيلاء على ملكك، وينتظر وفاتك، ومن أجل هذا فهو يُبطن غير ما يظهر، يصنع للناس المعروف حتّى يحبّوه ويساندوه إن هو وثب على عرشك، فقال الملك:

- يا هذا إنّي لم أر منه إلا الإخلاص والعمل والدراية.

قال الرجل:

- كما أخبرتك أيّها الملك؛ إنه يظهر غير ما يبطن، ويعمل ليله ونهاره في مصانعة الناس حتّى يستوثق من مؤازرتهم له.

قال الملك:

- وكيف لي أن أعرف حقيقته ولم أر منه زلّة في قول أو فعل؟!

قال الرجل:

- إنْ أردت أن تعرف الحقيقة، فأخبره أنه قد بدا لك أن ترفض الملك وتلحق بالنسّاك، وسوف ترى فرحته بذلك.

وكان أقرباء الملك يعرفون رقّة الوزير وميله إلى الدين وحبّه للنسّاك ولم يشكّوا أنّ الملك إذا أخبره بميله إلى الدين والتنسّك فإنه سيفرح، ومن ثم ينقلب عليه الملك ويطرده أو يقتله أو يسجنه، وبذلك يتخلّصون منه ويستأثرون بالأمر لا يشاركهم فيه أحد غيرهم ويصفو الملك لهم وحدهم!

قال الملك في نفسه:

- إن فعل ذلك، فلن أتحقق من أمره ولن أسأل عمّا سواه وسأعرف أن هذا الوزير منافق يبطن غير ما يظهر ويطمع بالملك ولن آمن وثوبه على عرشي في حياتي وسأتغدّى به قبل أن يتعشى بي.

ولمّا جاء الوزير على عادته انحنى للملك وحيّاه، وكان لا ينظر إليه قد علت وجهه ملامح الهمّ، فقال الوزير متسائلاً:

- مالي أرى الملك مهموماً؟! وقد خضع له العباد ودانت له البلاد ورزق ولداً ذكراً بهجة له في حياته ووارثه بعد مماته؟!

التفت الملك إلى وزيره وقال:

- أنت تعرف جيّداً حرصي على الدنيا وطلب الملك، وقد بسطت لي الدنيا فأعطتني كلّ ما أردت، وهذا العمر يمضي وينقضي ولعلّ ما بقي من سنواتي أقل ممّا عمّرت من حياتي.

وإنّي فكّرت في أمري وعمري فلم أرَ في ذلك طائلاً ويوشك أن ينتهي العمر وقد استوفيت من الدنيا كلّ شيء وعملت من أجلها عملاً قويّاً.

وقد ذكرت الآخرة وأريد أن أعمل في حال الآخرة عملاً قويّاً بقدر ما عملته في الدنيا، وقد خطر ببالي أن ألحق بالنسّاك وأخلّي هذا العمل لأهله، فما رأيك أيّها الوزير وقد قيل ما خاب الذي يستشير؟

قال الوزير وقد تأثّر بكلام الملك أيّما تأثّر وشعر بالرقّة حتّى تهدّج صوته وهو يقول:

- أيّها الملك! إنك تطلب الآخرة وهي الباقية، وإنّ الباقي وإن كان عزيز المنال لَأَهْلٌ أن يطلب، وإنّ الدنيا فانية، وإنّ الفاني وإن استمكنت منه لَأَهْلٌ أن يُرفض، ونعم الرأي ما رأيت أيّها الملك.

فلمّا سمع الملك جواب الوزير، أيقن بصدق ما قيل له من طمع الوزير ونفاقه، فأدار ظهره له وأعرض بوجهه عنه، وأدرك الوزير أنه قد وقع في فخ من فخاخ الكائدين وقد قُضي عليه، إذْ صدّق نيّة الملك وقال له ما قال.

فانصرف إلى منزله كئيباً حزيناً لا يعرف مَن الذي كاد له هذا الكيد! ومن الذي أوقعه في هذا الفخ! وبقي ليلته ساهراً يفكّر ماذا يفعل وما يصنع وما الذي دفع بالملك لأن يقول له ذلك؟! ولام نفسه لأنّه استعجل في الجواب، وكان عليه أن يتريث ويفكّر، ثمّ كفّ عن توجيه اللوم إلى نفسه لأنّه فات ما فات وعليه أن يفكّر بالذي هو آت؛ حتّى إذا أعياه التفكير ذكر ذلك الرجل الذي زعم أنه يرتق الكلام، فأرسل إليه من يأتي به، فلمّا جاء الرجل قال له الوزير:

- لقد زعمت أنك تحسن رتق الكلام.

فقال الرجل:

- نعم؛ اني أعرف هذه الصنعة لا أنكر هذا، فهل احتجت إلى شيء من

ذلك؟!

قال الوزير :

- نعم؛ أخبرك إني صحبت هذا الملك من قبل أن يصبح ملكاً وبعد أن صار ملكاً وهو يعرفني تمام المعرفة ويعرف إخلاصي ونصحي له ووفائي وإيثاري إيّاه على نفسي، لم ير مني زلّة في قول أو فعل.

وقد وطّدت له الأمور وكنت وزيره وساعده وعضده في شؤون الحكم وإدارة الدولة.

وكنت له الصديق الوفي أُحبه ويحبّني ويعرف إخلاصي له ومحبّتي إيّاه، وهكذا كنا كلّ هذه السنين حتّى صباح اليوم؛ إذ رأيت في وجهه ما استنكرته استنكاراً شديداً وأدركت أنه لا يضمر في قلبه لي إلاّ الكراهيّة؛ وأنا خائف منه ووجل.

فقال الرجل الراتق:

- هل لذلك سبب أو علّة، وهل بدرت منك زلّة؟

قال الوزير:

- نعم؛ إنّه دعاني وقال لي: إني اختبرت الدنيا فلم أجد فيها طائلاً، وإني أحب أن ألحق بالنسّاك وأترك الملك، فاستحسنت منه ذلك وقلت له نِعم الرأي هذا.

ثمّ قصّ عليه الوزير كلّ شيء.

فقال الرجل :

- نعم؛ هذا فتق كبير؛ لأنّ الملك قد ظنّ أنّك تطمع بالملك وتخلفه على العرش، وفي هذا فتق سأرتقه لك.

قال الوزير:

- وكيف؟!

قال الرجل:

- سأخبرك بما عليك أن تفعل؛ فترتق الفتق وتعود إلى سابق شأنك ومنزلتك عند الملك.

ثمّ إنّ الرجل علّمه ماذا يفعل غداً في الصباح الباكر وماذا يقول للملك، ثمّ انصرف الرجل إلى مكانه.

وأمّا الوزير فقد طار النعاس من عينيه، فنهض ليقوم بما أشار به الرجل الراتق، فحلق رأسه وطرح عنه ثيابه المزركشة وحلّته الرسميّة وارتدى أوضع الأزياء التي يرتديها النسّاك وانتظر طلوع الشمس.

أمّا الملك فقد كان مهموماً يفكّر ماذا يفعل بوزيره الطمّاع الذي يريد الوثوب على عرشه؛ أيلقي به من فوق الجبال كما يلقى بالفيلة ويقول له انظر ما آل إليه أمرك؟ وما الذي جرّه عليك طمعك؟ أو يسجنه في طامورة تحت الأرض لا يعرف فيها الليل من النهار؟ أو ينفيه خارج مملكته كما نفى من قبل بلوهر فتنقطع أخباره؟ وفيما هو يفكّر إذا بالحاجب يدخل عليه ويخبره بحضور الوزير بزي منكر، فأمر بإدخاله.

ولمّا نظر الملك إلى وزيره بهذه الهيئة، فغر فاهه ثمّ قال:

- ما هذا؟ حلقت رأسك ولبست زيّ النسّاك وجئت حافياً!!

وكان الوزير قد نمّق جوابه، فقال بوقار:

- أيّها الملك؛ إنّك استشرتني بالأمس وأخبرتني بأنّه بدا لك أن تلحق بالنسّاك وقد أشرت عليك وقلت نِعم الرأي رأيك.

وينبغي عليّ أن أفعل الذي أشرته عليك؛ لأنّك دعوتني إلى أمر أفضل ممّا نحن فيه، وما عليّ إلا أن أصحبك وأواسيك، فهيّا أيّها الملك إنْ كنت على رأيك!

ابتسم الملك ثمّ أقبل على وزيره وعانقه وقال له:

- إنّما امتحنتك وأردت معرفة سريرتك، فإذا أنت صديقي ووزيري، ولن أسمع من أحد بعد الآن في أمرك، ولن أُصدّق الوشاة عنك، فانطلِق إلى منزلك واخلع هذا الزي الوضيع والبس حلّة الوزارة واعلم أن منزلتك قد زادت عندي.

وهكذا تمكّن الوزير من رتق الفتق وعاد إلى وزارته وهو أكثر قوّة وأعلى شأناً، وكفّ أقرباء الملك عن التآمر عليه، وأصبح الناس لا يرون الملك إلا وإلى جانبه وزيره، وزاد إحسان الوزير للفقراء وعونه للبؤساء، وزاد حبّ الناس له كذلك.

يوذاسف الفتى

أمر الملك بمطاردة النسّاك والقبض عليهم، فسُجن من سجن، ونُفي من نفي إلى خارج البلاد، وهرب واختفى من اختفى؛ حتّى لم يعد يرى منهم أحد، كأنّما ابتلعتهم الأرض أو أبيدوا عن بكرة أبيهم.

ولم يكن الأمر كذلك، فقد لجأ بعضهم إلى رؤوس الجبال الشاهقة، واختبأ آخرون في الغابات الكثيفة.

وذات يوم خرج الملك في رحلة صيد، فبينا هو يبحث عن صيد يصطاده إذ وقعت عيناه على شخصين يمرقان بين الأشجار ويخطفان كما تخطف الأشباح، فأمر بعض حرّاسه أن يقبضوا عليهما، فانطلقوا وكلابهم تنبح، وما أسرع ما جاءوا وهم يسوقون شخصين؛ فإذا هما من النسّاك.

قال الملك:

- كيف تجرّأتما على البقاء في مملكتي ولم تهربا من البلاد؟

قالا:

- كنّا بصدد الخروج، والطريق طويلة وشاقّة، وليس عندنا ما نركبه، ولا عندنا من الزاد ما يكفي في الطريق.

قال الملك:

- إنّ الذي يخاف من الموت يسرع في المشي والسفر؛ وإن لم تكن عنده دابّة يركبها أو زاد للطريق.

قالا:

- نحن لا نخاف من الموت؛ لأنّنا ننظر إليه فنرى فيه نهاية المطاف وختام التعب واستراحة المسافر.

قال الملك:

- أنتما تكذبان؛ وكيف لا تخافان الموت وقد زعمتما أنكما بصدد الخروج من البلاد؟! أ ليس هذا خوفاً من الموت وهروباً منه؟

قالا:

- إنّ الهرب من الموت لا يعني الخوف منه، فلا تظن أنّنا خفنا فهربنا؛ بل هربنا حتّى لا نعينك على أنفسنا؛ لأنّ العاقل لا يلقي بنفسه إلى الهلاك، وهذا من خلق النسّاك.

فشعر الملك بالغضب، وأمر بأن توقد النار وأن يلقوا بهما بين ألسنة اللهب، وأصدر أمراً بإحراق كلّ ناسك في المملكة، فبادر رؤساء معابد الأوثان إلى مطاردة النسّاك في كلّ مكان؛ حتّى قمم الجبال وداخل الكهوف والمغارات والغابات.

وأصبح الإحراق بالنار جزءاً من التقاليد في أرض الهند.

ومع كلّ ذلك، بقي عدد من النسّاك في البلاد؛ إذ أمعنوا في الاختفاء وصبروا على الشدّة والبلاء؛ من أجل أن يكونوا دعاة للناس وهداة لهم.

فكان أحدهم يظهر في قرية من القرى يعظ أهلها ثمّ يختفي؛ فلا يعثر عليه أحد.

هذا ما كان من أمر الملك وأمور المملكة. وأما ما كان من أمر يوذاسف، فإنّه نبت أحسن نبات في جسمه وعقله وفكره ونما أحسن نمو؛ حتّى أصبح فتىً رشيداً، ولكن لم يتعلّم من الآداب إلا ما سمح له أبوه؛ إذ شدّد على حاضنه ومربيه أن يعلّمه آداب الملوك فقط.

فنشأ الفتى يوذاسف وهو لا يعرف معنى للموت والزوال والفناء، وكان يوذاسف يحفظ كلّ ما يقال له وكان أعجوبة الناس في الحفظ.

وكان أبوه الملك يزوره بين الفينة والأخرى، فيراه وقد نما وأصبح فتى، فكان يشعر بالسرور لِما يراه من علمه وحفظه، وأحياناً يشعر بالقلق يساوره وبالحزن يداهمه والهواجس تنتابه كلّما تذكّر نبوءة المنجم حول مستقبل يوذاسف.

وفطن يوذاسف إلى العيون وهي تراقبه، حتّى إذا أراد الخروج لوحده منعوه برفق، وكان يتوق إلى الخروج من المدينة، فكلما همّ بذلك وجدهم يحولون بينه وبين ذلك، فعرف أنّه محاصر وارتاب من عملهم ولكنه سكت، فلم يعترض ولم يتذمّر، وقال في نفسه هؤلاء أعلم بمصلحتي منّي، وإنّه لِحكمة ما خفيت عليّ يمنعونني من الخروج.

وتمرّ الأعوام!

ثمّ مرّت أعوام ازداد يوذاسف خلالها وعياً وعقلاً وفهماً، فقال في نفسه: ليس من العقل أن أُسلّم اليهم زمام أمري، يفعلون بي كلّما يشاءون وأنقاد لهم

مسلوب الإرادة، إنّ هذا لا يليق بي؛ لأنّني إنسان، والإنسان ينبغي أن يحيا حرّاً طليقاً؛ إن هذه الطيور إذن أسعد حالاً مني.

وكان يوذاسف فتى عاقلاً، فصبر مدّة ليزداد بصيرة بما يجري حوله ويعرف أسرار هذا الحصار، وفكّر أن يكلّم أباه ويسأله إذا جاء لزيارته كما يفعل كلّ شهر، لكنّه انصرف عن هذه الفكرة وقال في نفسه: إنّ كلّ ذلك إنّما هو منه، فهو الذي أمر بذلك؛ لأنّ هؤلاء ينفذون إرادة أبي ولا أظنّه سيخبرني بسرّ ما يفعل ولن يطلعني على سبب لذلك، وما عليّ إلا أن أتحرّى الحقيقة من أحد هؤلاء الذين يحيطون بي ويعملون في خدمتي.

ووقع اختيار يوذاسف على رجل ممّن يخدمونه، وكان هذا الرجل ألطفهم به وأكثرهم حناناً عليه وحبّاً له، وكان يوذاسف يستأنس به أكثر من غيره.

وذات ليلة، كان يوذاسف جالساً في شرفة القصر وقد أشرق القمر من فوق ذرى الأشجار، وكان الرجل جالساً في حضرته وقد استأنس أحدهما بالآخر، وكان يوذاسف يحبّه لأدبه وأخلاقه، فقال له:

- اعلم يا مؤدّبي؛ إنني أحبك كما أحبّ والدي وإنّي أراك بمنزلة الوالد العطوف وأنت أقرب الناس إلى قلبي، وعلّمتني فأحسنت تعليمي، وأدّبتني فأحسنت تأديبي، وقد أخبرني أبي بأني سأصبح ملكاً من بعده، فإذا جلست على عرش المملكة، فأنت أسعد الناس حالاً عندي، وكيف لا تكون كذلك؟! إذا نصّبتك وزيراً لا أفعل شيئاً إلاّ بعد التشاور معك وطلب الاستشارة منك.

شعر الرجل بالسرور، وقال: لن أدّخر جهدي في التفاني بخدمتك والسهر على تصريف شؤون مملكتك، وسأكون في خدمتك ورهن إشارتك.

لكن يوذاسف أطرق برأسه وقال:

- أو أنك ستكون أسوأ الناس حالاً وأشقاهم عندي.

قال الرجل :

- ولماذا أكون أسوأ الناس حالاً عندك وأشقاهم لديك؟!

قال يوذاسف:

- لأنّك تخفي اليوم عنّي سرّاً سوف أعرفه غداً من غيرك، وحينئذ سوف انتقم منك أشدّ الانتقام.

ثمّ رفع يوذاسف رأسه ونظر في عيني الرجل نظرة ثاقبة، فأيقن الرجل بأنّ يوذاسف جاد كلّ الجد فيما يقول وعازم عليه، فخيّر نفسه بين أن يكون غداً وزيراً قديراً ويبلغ ذروة المجد أو أن يلقى في السجن أسيراً، فيمضي حياته وبقيّة عمره في ظلمات السجن، فقال:

- نعم؛ سوف أفشي لك الأسرار وأحدثك بجميع الأخبار، وأرجو منك أن لا تذكر ذلك لأحد سيّما الملك؛ لأنّه سينتقم منّي أشدّ الانتقام.

فطمأنه يوذاسف وقال:

- وكيف أفشي هذا السرّ عنك وأنت بمنزلة الأب الرحيم والمؤدّب العليم؟! وكيف أفعل ذلك وأنا أمقت الخيانة وأعشق الأمانة؟! وإني إن نسيت فلن أنسى إنقاذك لي من حيرة الجهل، فعرفت بفضلك سرّ هذا الحصار ولغز هذه الأسوار.

ونهض الحاضن ثمّ انحنى ليوذاسف واستأذن للانصراف بعد أن حدّثه بكلّ شيء، فأذن له وبقي يوذاسف ساهراً ينظر إلى السماء، وكان القمر قد أفل واشتد وميض النجوم، واستغرق في التفكير فيما أخبره الحاضن بقول المنجّمين لأبيه من أن مجده ليس بشرف الدنيا وما فيها من السلطان والعرش والثروة والغنى وإنّما في مجد الآخرة، فلم يعرف معنى ذلك.

وكيف نظر المنجّمون في النجوم ورأوا ما رأوا؟! وكيف صدّق أبوه بما قالوا؟! فضرب عليه هذا الحصار وأخفى عنه هذه الأسرار! وغلب يوذاسف النعاس، فأغمض عينيه ونام.

الخروج من الأسوار

ورأى يوذاسف نفسه يطير بجناحين ويحلّق في الأعالي ويجتاز الأسوار، وكان يرتفع في الفضاء حتّى أصبح لا يرى شيئاً فوق سطح الأرض، وكان كلّما ارتفع تألقت سحب من النور الذي لا يؤذي العين، إنه نور يختلف عن نور الشمس وضوء القمر، نور يضيء القلب ويملأ النفس إحساساً بالسكينة وشعوراً بالسلام.

ولم ينتبه من نومه إلا على أصداء الطبول والأبواق؛ فقد وصل موكب الملك الذي رغب في زيارة ابنه في غير الموعد المعتاد.

استقبل يوذاسف أباه بالترحاب، وكان الملك لمّا يرى ابنه قد شبّ ونما ورأى حسن أدبه وكماله وذكاءه، يفرح ويَظهر السرور على وجهه، ثمّ سرعان ما تختفي الفرحة من وجهه ويعلوه الهمّ! كان يخشى على ابنه من ذكائه أن يدفعه إلى التفكير في الأمور الممنوعة وأن تتحقّق نبوءة المنجّم في المجد الذي يبلغه الفتى والذي لا يشبه أمجاد الملوك.

انحنى يوذاسف لوالده وقبّل يده، ولمّا استقرّ بالملك الجلوس وخلا الأب لابنه والابن لوالده، قال يوذاسف بأدب ووقار:

- يا أبتي؛ إني وكنت صبيّاً فقد رأيت في نفسي تغيّراً من حال إلى حال، فأنا أعرف في نفسي أنني انتقل من حالة إلى أخرى، وأنّ الزمان يجري علينا جميعاً؛ كالنهر نراه ثابتاً في مكانه، ولكنه يتغيّر بما يجري فيه من الماء؛ فالماء في كلّ ساعة ليس هو الماء بعدها، وأنت يا أبتي لم تكن على هذه الحال يوم كنت صغيراً، ولن تبقى على هذا المثال إلى الأبد،

وسيغيّرك الزمن من هذه الحال ومن هذا المثال إلى حال أخرى ومثال آخر حتّى ينتهي بنا الزمان إلى الزوال.

فإن كنت يا أبتي أردت أن تخفي عنّي أمر الزوال فما بقي عليّ خافياً، ولئن كنت حبستني عن الخروج وفرضت عليّ الحصار وأقمت هذه الأسوار وحلت بيني وبين مخالطة الناس حتّى لا تتوق نفسي إلى غير ما أنا فيه، فلقد أشعلت في نفسي ناراً من الشوق إلى ذلك.

وإنّ نفسي لقلقة ممّا تحول بيني وبينه حتّى مالي همّ غيره، ولا أريد سواه، وإنّ فؤادي كالعصفور يريد الخروج من القفص، لأنّه يعلم ما في خارج القفص من الفضاء الواسع والعالم الفسيح.

وكيف يطمئن قلبي إلى شيء لا آلفه ولا أعتقد أنه ذو فائدة ونفع؟!

فدعني أخرج من بين هذه الأسوار، وارفع عنّي هذا الحصار، وأخبرني بما تكره وحذّرني ممّا لا تريد حتّى أجتنبه وأحقّق رضاك.

وأدرك الملك أنّ ابنه قد وعى ممّا حوله واكتشف حقيقة الأمر وأدرك أمر الأسوار والحصار، وأيقن أنه إذا أصرّ على الاستمرار، فانّ النار التي تضطرم في أعماق ابنه ستزداد استعاراً، وأنّ ذلك لا يزيده إلا رغبة في الخروج والإصرار.

فقال لابنه بعطف وحنان:

- بني! إنني ما أردت من كل ذلك إلا أن أنحّي عن طريقك الأذى، فلا ترى في حياتك إلا البهجة والراحة، ولا تسمع إلا ما يدخل في قلبك السرور والفرح، فإذا كنت ترغب في الخروج إلى هذا العالم فسوف أسمح لك؛ لأن تحقيق ما تهوى وما تحب هو من أغلى أمنياتي.

وهكذا؛ تحقّق ليوذاسف ما أراد من الخروج والانطلاق إلى العالم الأرحب.

وأصدر الملك أوامره النافذة في إعداد موكب مهيب للأمير يوذاسف، كما أكّد

على تطهير طريقه من كل المناظر السلبيّة والقبيحة، وأن تقرع الطبول وتصدح الأبواق وينطلق العزف.

وكان يوذاسف يجيل بصره هنا وهناك، فلم تقع عيناه على شيخ هرم أو إنسان مريض أو إنسان به عاهة أو عوق؛ بل رأى شباباً في نضارة الشباب، وفتيات حسان في مقتبل العمر، وأطفالاً كالورود، وانتهت جولته في ذلك اليوم، فلمّا عاد إلى قصره عاد مفكراً وقد أدرك أن ما رآه من مناظر لم يكن عفوياً؛ بل هو مخطّط له؛ لهذا عزم على أن يكرّر رحلته ويسلك طرقاً أخرى.

أسرار الحياة

وتمرّ الأيّام وكان يوذاسف يكثر من رحلاته، وسلك طريقاً جديداً قد غفلوا عنه، فمرّ في طريقه على رجلين يتسوّلان وقد مدّا أيديهما يسألان العابرين، وكان أحدهما يشبه الهيكل العظمي؛ قد اصفر جلده والتصق بعظامه وغارت عيناه في محجريهما وأصبح منظره مخيفاً، والآخر أعمى، يقوده طفل رثّ الثياب وقد علا جسمه الوسخ ولوحت أشعّة الشمس وجهه.

فلمّا رأى يوذاسف هذا المنظر، اقشعرّ بدنه وسأل عنهما، فقيل له:

- إنّ هذا الهزيل الجسم لعلّة وسقم باطن، وهذا الأعمى من مرض مزمن.

فسأل يوذاسف:

- وهل هناك غيرهما من أصابه هذا البلاء؟!

قيل: نعم.

فقال يوذاسف:

- وهل يأمن أحد على نفسه من الإصابة بمثل هذا؟

قالوا: لا؛ لا يأمن أحد من ذلك.

وعاد يوذاسف إلى القصر مهموماً حزيناً قد امتلأت عيناه بدموع الحزن، وألقى نظرة على القصر وعلى ما فيه من أثاث فاخر، فكانت نظرة ملؤها الاستخفاف، ومكث في القصر أيّاماً لا يخرج إلا إلى الشرفة التي تطلّ على الوادي الفسيح، وذلك بعد أن تغيب الشمس ويشرق القمر، فيجلس مستغرقاً في تأمّلاته.

وبعد أيّام قضاها في القصر وليالٍ أمضاها في الفكر ومسامرة القمر، اشتاق للخروج والتجوال، فخرج وحيداً وأمعن في المسير بعيداً؛ حتّى وصل إلى مدينة صغيرة، وفيما هو يمضي في طريقه رأى شيخاً هرماً قد تقوّس ظهره وانحنى.

وكان شعره كالقطن، ولون وجهه كالقار، قد أمسك بعصاه على وهن، وكان يدبّ على الأرض كدبيب النمل، ويمشي على مهل في خطى واهنة قصيرة، قد نزل حاجباه على عينيه، ماض في طريقه وكأن كلّ ما حوله لا يعنيه.

فسأل يوذاسف عن شأنه أ به سقم أم علّة؟

فقيل له: لا؛ ولكن هذه الشيخوخة والهرم، وهذه سنة الحياة في الإنسان، يأتي إلى الدنيا طفلاً ضعيفاً لا حول له ولا قوّة، ويعيش إلى أن يهرم، ويخرج من الدنيا شيخاً ضعيفاً لا حول له ولا قوّة.

فقال يوذاسف:

- وكم يعيش الإنسان حتّى يصل إلى هذه الحال؟!

قيل له: مائة سنة أقل أو أكثر بقليل.

فسأل يوذاسف:

- فما وراء ذلك.

قيل له:

الموت والفناء.

قال يوذاسف:

- ألا يستطيع أن يبقى بإرادته؟!

قالوا:

- كلاّ: الميلاد والموت ليسا بإرادة البشر؛ فهذا الشيخ الهرم لم يبق له من الحياة إلا القليل، من الساعات والأيّام.

وعاد يوذاسف من رحلته وهو يقول في نفسه: اليوم أربع وعشرون ساعة، والشهر ثلاثون يوماً، والسنة اثنا عشر شهراً، وانقضاء العمر في مائة سنة، آه آه.. ما أسرع الساعات في اليوم! وما أسرع الأيّام في الشهر! وما أسرع الشهور في السنة! وما أسرع السنين في العمر..!

آه من سرعة الساعات في الأيّام، والأيّام في الشهور، والشهور في الأعوام، والأعوام في العمر..

آه آه أ هذه هي نهاية الحياة؟! أ هذا هو مصير الإنسان؟!

القلق الإنساني

وفي تلك الليلة، لم يستطع يوذاسف أن ينام، فقد ظلّ عقله متوقّداً وقلبه متيقّظاً، يرسل بصره خلال الظلام الذي غمر الوادي، يفكّر حائراً في أمره متأملاً في أسرار الحياة لا يعرف تفسيراً لما يرى.

وبدأ الهمس عن حزن الأمير يوذاسف وسرّ هذا الحزن، وبدأ الناس يتحدّثون عن كماله وجماله؛ فقد كان ليوذاسف قلب حيّ وعقل متوقد.

لم يكن يعجبه شيء ممّا يعجب الأمراء؛ قد انصرف عن الدنيا وشهواتها ومتعها، يكثر من ساعات الانزواء وحيداً متأمّلاً مستغرقاً في الفكر مهموماً.

وهكذا كان حال يوذاسف هذه الليلة؛ فقد تمثلت له المشاهد ممّا رأى وسمع، يحاول أن يفهم ويدرك أسرار الحياة والزمن.

وطال سهره تلك الليلة، فنهض وطرق الباب على الحاضن، وكان الحاضن مستيقظاً تلك الليلة يفكّر في أمر هذا الفتى وهمومه وأحزانه وانصرافه عن متع الحياة، فلمّا رأى يوذاسف يدخل عليه، هبّ لاستقباله ومضيا معاً إلى شرفة القصر.

وأفضى يوذاسف بسرّ أحزانه وهمومه، وقال له:

- هل تعرف من الناس أحداً له شأن غير شأننا وحياة غير حياتنا أو أنّ الناس جميعاً كما رأيت وسمعت؟!

قال الحاضن:

- نعم؛ أعرف ناساً يختلفون عمّا نحن عليه، وهم أناس يقال لهم «النسّاك»، وهم قوم رفضوا الدنيا وأعرضوا عنها، وطلبوا الآخرة واتّجهوا إليها، وهم يتحدّثون بأشياء لا نعرفها، ولهم كلام وعلم لا نعرف ما هو، وقد عاداهم الناس وأبغضوهم خاصّة لمّا نبذهم الملك وطردهم وأمر بإحراقهم ونفيهم عن هذه الأرض وهذه البلاد.

قال يوذاسف:

- ألا يوجد منهم أحد؟! فأنا في شوق للقائهم والتحدّث إليهم، فلعلّي أجد عندهم ما أبحث عنه.

قال الحاضن:

- لا أظنّ، فقد هربوا من البلاد ونفوا من هذه الأرض وغيّبوا أشخاصهم، ينتظرون الفرج، وقد سمعت أنّ هذه سنتهم في دول الظلم كما تغيب الشمس في الظلام.

شعر يوذاسف بالحزن المرير، واعتصر فؤاده من الألم، وأصبح كالإنسان الذي يبحث عن كنز ضائع، فهو مضطرب الحال متلهف للسؤال.

وهكذا عاش يوذاسف، وهكذا كان حاله، حتّى ذاع صيته في آفاق الأرض، واشتهر بجماله وكماله وزهده في الدنيا واستخفافه بها وهوانها عليه.

التاجر الغريب

ووصل خبر يوذاسف إلى جزيرة سرانديب وطرق أسماع الحكيم بلوهر، ففكّر أن يذهب إلى مملكة سولابط ويلتقي يوذاسف، وهذه سُنة الحكماء، فانّهم كالأطباء الدوّارين بطبّهم لا ينتظرون السقيم ليأتي إليهم فيصفون له الدواء، وإنّما يبادرون إلى المريض فيعطونه الدواء ويأملون من الله الشفاء.

وفكّر في طريقة يدخل بها البلاد وقد نفي عنها منذ خمسة عشر عاماً، فما كان منه إلا أن خلع زيّ النسّاك وارتدى زيّ التجّار، وأخذ صندوقاً من الخشب صنعه بنفسه من أشجار الجوز، ووضع فيه كتب الحكمة واتّجه إلى الميناء.

وكانت سفينة تجاريّة تتأهّب للمسير، فاستقلّها وركب مع من ركب من التجّار وسلعهم وبضائعهم، وانطلقت السفينة تجري في مياه هادئة حتّى وصلت شواطئ مملكة سولابط.

ونزل الحكيم بلوهر مع من نزل من التجّار وسمح له الحرس بدخول البلاد.

وأخذ بلوهر طريقه نحو المدينة التي يعيش فيها يوذاسف إلى أن وصلها بعد ثلاثة أيّام، وحط عصا الترحال كما يقال قرب باب القصر.

ولم تمض سوى ليلة واحدة حتّى عرف أنّ أقرب الناس إلى ابن الملك هو الحاضن، من أجل هذا راح يراقبه حتّى إذا حانت فرصة اللقاء به بادر إليه، وقال له وقد ظفر منه بخلوة :

- ـ إني تاجر من تجّار سراديب، قدمت إلى هنا منذ أيّام ومعي سلعة نفيسة عظيمة الثمن، عظيمة القدر، وقد بحثت عمّن أثق به، فوقع اختياري عليك، وسلعتي أنفس من الكبريت الأحمر.

قال الحاضن:

- صفها لي!

قال بلوهر:

- إنها تُبصّر العميان، وتُسمع الصُمّ، وتداوي من الأسقام، وتقوّي من الضعف، وتعصم من الجنون، وتنصر على العدو؛ وإني لم أر أحداً هو أحق بها من هذا الفتى، وأريد أن تذكر له ذلك؛ فإنه لن يخفى عليه فضل هذه السلعة النادرة إذا نظر إليها.

قال الحاضن:

- إنك لتقول شيئاً ما سمعنا به من أحد من قبلك، وإنّ ظاهرك ليخبر عن صدقك، غير أني لا أذكر أمراً لا أعرف ما هو! فاعرض عليّ سلعتك أنظر إليها، فإن رأيت شيئاً ينبغي لي أن أذكره ذكرته!

قال بلوهر:

- ـ إني رجل طبيب، وإني لأرى في بصرك ضعفاً، وأخاف إن نظرت إلى سلعتي أن يخطف بصرك، غير أنّ ابن الملك صحيح البصر قوي النظر حدث السن، ولست أخاف عليه أن ينظر إلى سلعتي، فإن رأى ما يعجبه، كانت سلعتي له مبذولة على ما يحب، وإن كان غير ذلك انصرفت.

فأطرق الحاضن يفكّر، فقال بلوهر:

- إيّاك أن ترفض؛ لأنّ هذا أمر عظيم لا ينبغي لك أن تحرم ابن الملك

منه أو تطويه دونه!

وخاف الحاضن إن رفض ذكره لابن الملك أن يتمكّن التاجر من الوصول إلى ابن الملك ثمّ يعرف ما جرى فيغضب عليه وتزول منزلته لديه، فقال:

- امكث أيّها التاجر، فإني سأذكر ذلك للأمير يوذاسف.

وانطلق الحاضن إلى يوذاسف، فأخبره بكلّ ما جرى وروى له كلّ ما قاله التاجر الغريب كلمة كلمة، فشعر يوذاسف بقلبه يحدّثه بأنّه قد وجد ضالّته.

فقال بلهفة وشوق:

- وماذا تنتظر؟! أسرع بإدخال هذا الرجل، وليكن دخوله ليلاً لا يعلم به أحد غيري وغيرك، وليكن هذا الأمر سرّاً بيننا، فإن هذا الأمر خطير لا ينبغي التهاون فيه.

وعاد الحاضن إلى بلوهر وطلب منه أن يتهيّأ ويستعد وأن يكون قرب الباب ليلاً، وكان بلوهر قد وضع صندوقه في واد قريب عند أصل شجرة نبتت بين الصخور.

فلمّا غابت الشمس عن السماء وغمرت ظلمة الليل الأشياء، جاء بلوهر يحمل صندوقه، فلمح الحاضن واقفاً ينتظره، فقال الحاضن:

- ما هذا الصندوق؟

قال بلوهر:

- في هذا الصندوق سلعتي، فأدخلني على ابن الملك أعرضها عليه.

واصطحب الحاضن بلوهر إلى المكان الذي يجلس فيه ابن الملك وأدخله عليه.

حيّ بلوهر ابن الملك وسلّم عليه، وأحسن ابن الملك إجابته، وأشار يوذاسف إلى الحاضن بالانصراف والى التاجر أن يجلس، فانصرف الحاضن

وجلس بلوهر حتّى إذا استقرّ به المجلس قال مخاطباً يوذاسف بأدب الحكماء:

- رأيتك يا ابن الملك زدتني في التحيّة بأكثر ممّا تحيّي به غيري من أشراف أهل بلادك.

قال يوذاسف:

- لأنّي آمل أن يكون عندك شيء عظيم، فهذا لعظيم ما رجوت عندك!

قال بلوهر:

- إنّ هذا ذكّرني بحكاية الملك والرجلين الفقيرين.

قال يوذاسف بأدب ووقار:

- ألا تسرد لي هذه الحكاية، فأعتبر بها وأزداد معرفة ممّا فيها!

قال بلوهر:

- يا ابن الملك! إنك إن أصغيت لما يحكى بعقلك، فسترى ما جرى رأي العين؛ لأنّ الكلمات لها معانٍ وصور، وإنك إن أعرتني أذُنك، سمعت كلاماً يطرقها، وإن أصغيت بعقلك وفؤادك، فإنك لا تسمع حكاية وإنّما تعيش ما جرى وتعيه وعي دراية لا رواية، فأصغ إلى هذه الحكاية بقلبك وعقلك ووجدانك.

وراح بلوهر يروي الحكاية من البداية:

حكاية الملك الطيب

- كان يا بن الملك في أفق من الآفاق وزمن من الأزمنة مملكة يحكمها ملك طيب القلب محب للخير، وكان يخرج في كلّ شهر يتفقد رعيته وينظر في أحوال مملكته ومعه الوزراء والقادة.

وذات يوم خرج الملك في موكبه راكباً فرسه، فصادف في طريقه رجلين يرتديان ثياباً خلقة وممزّقة وعليهما من آثار البؤس والضرّ، فلمّا بصر بهما الملك، قفز من فوق فرسه وتقدّم إليهما باحترام ومحبّة، فحياهما وصافحهما بل وعانقهما أيضاً!! وما فعل ذلك إلا لأنّهما ناسِكَين، فلم ينظر إلى ظاهرهما وإنما نظر إلى باطنيهما؛ فمن أجل هذا عظّمهما ونزل إكراماً من أجلهما.

ورأى الوزراء والقادة ما فعله ملكهم، فاستاءوا وانزعجوا جميعاً وتبادلوا فيما بينهم النظرات والهمسات؛ كيف يفعل ذلك ملك كبير مع رجل بائس فقير؟!

وفي نفس الليلة اجتمع بعضهم وتكلّموا في ذلك، فكلّهم أدان الملك واستنكر فعلته وأجمعوا على أن يذهبوا إلى أخيه، فانطلقوا إليه ودخلوا عليه.

فقال أخو الملك:

- إنّ أمراً خطيراً ولا شكّ جاء بكم في هذه الساعة من الليل!

قالوا بأجمعهم: نعم.

ثمّ تكلّم أحد الوزراء نيابة عنهم، فقال:

- إنّ الملك قد أرزى بنفسه اليوم، وفضح أهل مملكته.

قال أخو الملك:

- وماذا فعل يا ترى؟

قال الوزير:

- فقز من فوق فرسه لإنسانين بائسين، فصافحهما وعانقهما ورحّب بهما، ولم نره يفعل ذلك مع الملوك والوزراء والسفراء، وقد جئنا إليك لتعاتبه على ما فعل وتلومه على ما صنع؛ لأنّه لا يجرؤ على ذلك سواك، ولا نعرف أحداً يقوم بذلك غيرك.

قال أخو الملك:

- أفعل ذلك غداً؛ إذ لا ينبغي أن يفعل ذلك ولا هو من شأن الملوك.

ولمّا طلع الصباح وبزغ النور ولاح، جاء أخو الملك فدخل القصر ومضى للقاء أخيه.

فقال الملك:

- إنّ أمراً خطيراً قد جاء بك ولا ريب!!

قال أخو الملك:

- أجل؛ إني سمعت كيت وكيت.

وأخبره بما سمع من وزرائه، ثمّ لامه على ما فعل وعاتبه على ما صنع وعمل، وختم كلامه بقوله:

- وإني أنصحك، فلا تعُد لمثل ذلك، فإنه لا ينبغي هذا للملك.

فأجابه الملك بكلام مبهم؛ فلم يزد على أن قال:

- نعم؛ صافحت رجلين فقيرين!

ثمّ سكت مطرقاً برأسه لا يتكلّم، فغادر أخوه القصر وهو لا يدري ما حال أخيه الملك؛ أساخط هو عليه أم راض؟!

ومرّت أيّام على ذلك وكان من سنن وتقاليد تلك المملكة، أنّ للملك مناد يدعى عندهم «منادي الموت».

وكان إذا حكم الملك على أحد بالموت، جاء هذا المنادي فنادى في فناء داره، وهكذا كانت سنّتهم فيمن يريدون قتله.

فجاء منادي الموت، فنادى في فناء دار أخي الملك.

فجاءت النوائح والنوادب تنوح عليه وتندبه، وأيقن أخو الملك أنه ميت لا محالة، فخلع ثيابه وارتدى ثياب الموتى، ثمّ سار إلى قصر أخيه الملك وهو حزين القلب باكي العين وقد تغيّر من الخوف، فسمع الملك بكاءً ونحيباً يتناهى إلى أذنيه، فسأل عن ذلك؟

فقيل له: إنّ أخاك قد جاء وهو دامع العين باكٍ.

فأمر الملك بإدخاله عليه، فلمّا حضر بين يديه، وقع على أخيه الملك باكياً منتحباً منادياً بالويل والثبور، ثمّ رفع يده متضرّعاً ودموعه تجري على خديه، فقال له الملك:

- أيها السفيه! ها أنت تجزع من منادٍ نادى في بابك بأمر المخلوق وليس بأمر الخالق، وأنا أخوك وتعلم أنه ليس لك ذنب أقتلك عليه، ثمّ أنت وغيرك تلومونني على وقوعي على الأرض ونزولي عن مركبي حين نظرت إلى منادي ربّي، وأنا أعرف منكم بذنوبي التي عليّ، فانصرِف واذهب، فإني أعرف أنه إنما غرّك وزرائي، وسيعلمون خطأهم بعد حين.

ثمّ إنّ الملك أرسل وراء نجار من أحذق وأمهر النجارين، فلمّا جاء أمره أن يصنع له أربعة صناديق، وأن تكون لها أقفال محكمة، فلمّا أنجز النجّار صنع الصناديق، أمر الملك بأن يطلى صندوقان بالقار الأسود وأن يطلى صندوقان بالذهب الأصفر، ثمّ إنّ الملك أمر بأن يملأ الصندوقان المطليّان بالقار بالذهب والفضّة والياقوت والزبرجد، فملأوهما بذلك، ثمّ أمر الملك بأن يملأوا الصندوقين المطليين بالذهب بالجيفة والدم والقاذورات.

وأحكم سدّ جميع الصناديق الأربعة.

ثمّ أمر الملك بأن يحضر جميع الوزراء والأشراف والأعيان وخاصّة الذين كانوا في موكبه يوم مرّ بالناسِكَين ونزل لهما.

فلمّا اجتمع الوزراء والقادة والأشراف وأعيان البلاد، صفق بيديه، فدخل رجال يحملون الصناديق الأربعة، ورأى الجميع صندوقين من الذهب وصندوقين من القار في وسط البلاط.

وكان أخو الملك واقفاً في جمع الوزراء، فقال له الملك يخاطبه:

- ما تقول يا أخي في قيمة هذه الصناديق؟

قال أخو الملك على الفور:

- إنّ الأمر لواضح؛ فهذان الصندوقان الذهبيان لا قيمة لهما؛ لأنه لا يستطيع أحد أن يعرف لهما ثمناً لفضلهما وظاهر أمرهما، وأمّا الصندوقان المطليان بالقار، فلا قيمة لهما أيضاً لرذالتهما ولا ثمن لهما لظاهر أمرهما.

التفت الملك إلى وزرائه وأعيان مملكته، وكلّهم أيّد ما قال أخو الملك، وقالوا: هذا رأينا جميعاً.

هنالك أمر الملك بفتح الصندوقين المطليين بالقار، فلمّا فُتحا أضاءت أضواء الذهب واللؤلؤ والياقوت والجواهر جدران البلاط وخطفت أبصار الناظرين، فقال الملك:

- هذان مثل الرجلين الناسكين اللذين ازدريتم لباسهما وظاهرهما وهما مملوءان علماً وحكمة وصدقاً وخيراً وكلّ صفات النبل الذي هو أثمن وأفضل من الياقوت واللؤلؤ والذهب والجواهر.

ثمّ إنّ الملك أمر بفتح الصندوقين المطليين بالذهب، فلمّا فتحا ارتدّوا إلى الوراء من رائحتهما تقزّزاً ومن سوء وقبح منظرهما وأشاحوا بأبصارهم وسدّوا أُنوفهم من النتن؛ فقال الملك:

- وهذان مثل القوم الذين يرتدون الثياب المزركشة بالذهب والمزيّنة

بالجواهر فيما باطنهم مملوء بالجهل والكذب والظلم والظلام وأنواع الشرور، التي هي أبشع وأقذر من هذه الجيفة.

حينئذ قال الوزراء والأشراف:

- قد علّمتنا ووعظتنا واتّعظنا أيّها الملك.

وسكت بلوهر لحظات، ثمّ قال:

- هذا مثلك يا ابن الملك في استقبالك لي وترحيبك بي.

وكان يوذاسف متّكئاً، فاستوى جالساً ثمّ قال :

- زدني مثلاً.

حكاية الأرض الطيّبة

فلمّا رأى بلوهر شوق ابن الملك وإصغاءه، قال:

- إنّ أحد الزرّاع أراد أن يزرع حقلاً، فأخذ بذوره الطيّبة ليبذرها، فملأ كفّه وراح ينشر بذوره هنا وهناك، فسقطت بعض بذوره على حافّة الطريق، وبعض آخر وقع على صخور عليها تراب قليل أصابه ندى ضئيل، ووقع بعض آخر من البذور في بقعة فيها أشواك، ووقع بعض من البذور في أرض طيّبة وكان قليلاً.

وكان مصير البذور التي وقعت في حافّة الطريق أنّ الطيور التقطتها في الحال. وأمّا البذور التي وقعت على الصخور التي فيها تراب قليل وأصابها ندى ضئيل، فإنّها اهتزّت وخرجت منها جذور، فصادفت صخرة صمّاء، فلم تنبت، فما لبثت أن جفت وماتت وذرتها الرياح.

وأمّا البذور التي وقعت في أرض فيها شوك، فإنها نبتت ونمت، ولكن

الأشواك منعتها أن تثمر. وأمّا البذور التي وقعت في الأرض الطيّبة؛ فإنها نبتت وأورقت وتجذّرت وآتت أكلها وثمارها؛ وإن كانت البذور قليلة لكنّها سلمت وزكت وأينعت.

قال يوذاسف:

- وما وجه الحكمة في ذلك؟

قال بلوهر:

- أمّا المزارع فهو حامل الحكمة، وأمّا البذور الطيّبة، ففنون العلوم والحكمة والكلام، فأما الذي وقع على حافة الطريق من البذور فالتقطه الطير، فالحكمة تطرق السمع، فلا تفتح لها النفس، فتمر صفحاً، وأمّا الذي وقع على الصخرة وصادفت ندى، فإنه جفّ؛ لأنّ السامع استحلاه ولم يعه ويفهمه بعقله، فلمّا أراد أن ينبت صادفت الجذور قلباً قاسياً، فجفّ ويبس ومات.

وأمّا الذي نبت في الأشواك، فمنعه الشوك من أن يثمر، فإن صاحبه وعاه حتّى إذا جاء وقت العمل به خنقته الشهوات فأهلكته.

وأمّا ما زكى وطاب وسلم ونما وأثمر، فقد وعاه صاحبه وحفظه وعمل به، وكانت له من الإرادة والعزم أن هزم شهواته وطهّر قلبه من دنسها، فنبتت بذور الحكمة في قلب طاهر؛ كما تنبت البذور الطيبة في الأرض الطيبة.

قال ابن الملك:

- إنني آمل أن يكون ما تبذره أيّها الحكيم ممّا يزكو ويسلم ويطيب وينبت وينمو ويؤتي أكله وثماره.

فاضرب لي مَثَل الدنيا واغترار أهلها بها!

حكاية الرجل الغافل

قال بلوهر الحكيم وقد غيّر من أسلوبه في عرض الحكاية:

- انظر يا بن الملك!

انظر إلى ذلك الرجل الهارب وإلى الفيل الهائج يطارده في أحراش الغابة! إنه يفرّ من شجرة إلى أخرى، والفيل الهائج يلاحقه يريد البطش به، حتّى وصل إلى حافة هاوية، قد نهضت شجرة عندها وقد تفرعت الغصون من أسفل جذعها، فبادر الرجل إلى غصن، فتعلّق به وتدلّى وجاء الفيل، فوقف عند حافّة الهاوية.

والتفت الرجل إلى الغصن الذي تعلّق به، فرأى جرذين أحدهما أسود والآخر أبيض وهما يقرضان الغصن، ثمّ نظر إلى الأسفل فرأى أربع أفاعٍ قد أخرجت رؤوسها من حجورها، ولمّا نظر إلى قعر الهاوية رأى تنيناً فاغراً فاه نحوه يريد التقامه.

ثمّ راح الرجل يجيل البصر حوله، فرأى خلية نحل صغيرة، فمدّ يده إلى العسل ولعقه، فانتشى بلذّته متحمّلاً لسع الزنابير.

انظر إلى الرجل الغافل كيف انشغل بلعق العسل غافلاً عن الفيل الهائج، وعن التنين فاغراً فاه ينتظر سقوطه ليلتقمه، وعن الجرذين الأسود والأبيض يقرضان الغصن المتعلّق به، وعن الأفاعي الأربع لا يدري متى تهاجمه.

وسكت بلوهر الحكيم لحظات ليقول:

- ـ يا ابن الملك! أمّا الهاوية، فهذه الدنيا المليئة بالآفات والبلايا والشرور، وأمّا الغصن، فهو العمر، وأمّا الجرذان الأسود والأبيض، فهما الليل والنهار يقرضان غصن العمر ويسرعان في أجَل الإنسان، وأمّا الأفاعي الأربعة فهي الأمراض والسموم الناشئة من المرارة والبلغم والريح والدم والتي لا يدري صاحبها متى تهيج به.

وأمّا التنين الفاغر فاه ليلتقمه، فهو الموت الذي يرصد الإنسان في كلّ حين لا يغفل عنه لحظة، وأمّا خلية العسل، فهي لذائذ الحياة ومتعها وشهواتها وما فيها من لذّة في الأكل والشرب والشم واللمس والسمع والبصر.

قال يوذاسف:

- إنّ هذا لمثل عجيب، وإنه لتشبيه حق، فزدني مثلاً للدنيا وانشغال الناس فيها!

حكاية السفينة المبحرة والجزيرة

قال بلوهر الحكيم:

- إنّ أهل الدنيا في غفلتهم مثلهم مثل قوم ركبوا سفينة.

انظر يا ابن الملك إلى الناس منشغلين بكلّ شيء من مطعم وملبس إلا شيئاً غفلوا عنه: إلى أين هم يسيرون؟! بل إنهم غفلوا عن السفينة تمخر بهم عباب البحر ومياه المحيط إلا قليلاً منهم يدركون ذلك، فتراهم أقل تهافتاً على ما يتهافت عليه غيرهم.

انظر يا ابن الملك وقد وصلت السفينة إلى جزيرة خضراء، فرست في شواطئها وتوقفت في سواحلها ونادى الملاّح:

- انزلوا أيّها المسافرون واقضوا حوائجكم، فهنا ماء عذب زلال، وأشجار محملة بالثمار، وظلال باردة وأرض معشوشبة، واعلموا أنّ السفينة لا تمكث أكثر من أربع ساعات، فعودوا قبل فوات الأوان وانتبهوا للنداء بالرحيل.

ونزل المسافرون في أرض الجزيرة، بعد أن حذّرهم الملاّح وأكّد عليهم وخوّفهم من مغادرة السفينة ورحيلها، فتفرّقوا في أنحاء الجزيرة؛ فبعض منهم

نهل من مائها العذب واغتسل وجلس قليلاً أو ذهب قريباً، فقضى حوائجه ثمّ عاد، وركب السفينة واختار مكاناً مناسباً بعد أن وجدها خالية، فجلس حيث طاب له أن يجلس.

وهؤلاء لم ينسوا أنهم في سفر وأنهم نزلوا للاستراحة وقضاء الحوائج، فعادوا إلى السفينة قبل رحيلها إلى غايتها.

ولكن انظر يا ابن الملك إلى أولئك الأشخاص كيف يتجولون في الجزيرة ينظرون إلى أشجارها المثمرة وأزهارها الملوّنة، فيشمون شذاها ويمتعون أبصارهم بأشكالها وألوانها وجمال منظرها.

وها هم الآن يجلسون في مكان ساحر أخّاذ، حيث النهر يتدفّق من عين في سفح الجبل، فجلسوا بين الصخور وقد هبّت عليهم نسائم مفعمة بندى المياه وقد ظلّلتهم الأشجار العالية، فلا تسمع سوى رشاش المياه يتساقط فوق الصخور وتغريد الطيور في ألحان موزونة.

ثمّ لفتت أنظارهم الأصداف الملوّنة والحصى بأشكاله وألوانه وتألّق بعض الأحجار الكريمة، فراحوا يتأمّلون منظر الأشجار والثمار وأشكال الأحجار وألوان الزهور، ويصغون إلى تغريد الطيور وقد غفلوا عن الوقت وكم مضى منه؛ فجأة ألقى أحدهم من يده الأصداف الملوّنة وهتف كالملسوع:

- السفينة!

وانتبه رفاقه إلى ذلك، فألقوا ما بأيديهم وركضوا إلى الساحل، فرأوا السفينة ما تزال راسية، فركبوها لكنّهم لم يجدوا إلا مكاناً ضيّقاً فجلسوا فيه.

سكت بلوهر عن الكلام، ثمّ قال:

- وانظر يا ابن الملك إلى هذه الجماعة من المسافرين وقد أمعنوا في التجوال هنا وهناك، فكلّما مرّوا بشجرة مثمرة تناولوا من ثمارها

وقد أذهلتهم الأصداف بأشكالها وألوانها وأسكرتهم الطيور بأصواتها وألحانها، وأكبّ بعضهم على التقاط الأحجار الكريمة والأصداف الملوّنة، وحملوا معهم ما استطاعوا أن يحملوا، وأمعنوا في التجوال ما استطاعوا أن يمعنوا.

وفيما هم منهمكون بجمع الأحجار وتناول الثمار، إذا بهم يسمعون نداء الملاّح يأتي من بعيد، فهبّوا إلى جهة النداء.

وكان طريقهم وعراً بين صخور حادّة وأشواك ناتئة وقد أثقلهم ما حملوه معهم من أحجار وأصداف وأزهار، فلمّا وصلوا قرب الشاطئ، لمحوا السفينة وقد ابتعدت وتركت الساحل وأبحرت، فخاضوا المياه وتعلّقوا بالحبال بشقّ الأنفس، فلم يجدوا مكاناً لما حملوه معهم، فاضطرّوا إلى حمله على أعناقهم ورقابهم، فندموا على أخذ هذه الأثقال التي صارت عليهم وبالاً في وبال.

وكان بعضهم ممّن أمعن في التجوال في الجزيرة قد سمعوا نداء الملاح يأتي متقطّعاً؛ غير أنهم لا يمكنهم اللحاق بالسفينة، فسلكوا طريقاً لم يطرقوه من قبل وقد أرهقهم ما حملوه من الأحجار وأثمار الأشجار.

وكانوا يسمعون أصوات الحيوانات المفترسة، حتّى أصبحت قلوبهم تدق كالطبول عند الحناجر من الخوف والركض وما أجهدهم من الأثقال وهم بين شوكة تدمي أرجلهم أو غصن يمزّق أثوابهم أو تنزلق بأحدهم قدمه، فلمّا وصلوا، كانوا في أسوأ حال، ولكن واحسرتاه؛ لقد أبحرت السفينة وغادرت، فظلوا مبهوتين ينظرون إلى نقطة سوداء تصغر شيئاً فشيئاً حتّى غابت.

فبعضهم ظل على الشاطئ حتّى مات جوعاً، وبعضهم انكفأ إلى داخل الجزيرة يبحث هنا وهناك عن مكان آخر، فتاهوا في أحراش الجزيرة وهاموا على أنفسهم لا يعرفون إلى أين يسيرون وعن أيّ شيء يبحثون! فمات بعضهم في الأوحال، وبعض نهشته الحيّات والأفاعي وتمزّقوا كلّ ممزّق وتناثروا أشلاءً مبعثرة.

وسكت بلوهر عن الكلام وأطرق برأسه حتّى ظنّ يوذاسف أنه قد غفا ونام، فقال يحثّه على الكلام:

- أيّها الحكيم! فما حال الذين ركبوا السفينة ممّن بادر وركب وممّن تأخّر قليلاً وحضر في آخر لحظة فتعلّقوا بالحبال مع ما بهم من الأثقال؟

قال الحكيم بلوهر:

- اعلم يا ابن الملك؛ إنهم ثلاثة أصناف: فمنهم الذين بـادروا إلى السفينة، فوجدوا المكان الأوسع والمجلس الأرحب، فهؤلاء وصلوا الوطن سالمين لم يضرّ بهم طول السفر.

ومنهم الذين عادوا بعد أن تأخّروا قليلاً ولم يفتهم سوى سعة المكان، فتأذوا بضيق المجلس، فتحمّلوا ذلك مدّة، ثمّ لمّا وصلوا إلى الوطن، استراحوا من عناء السفر.

وأمّا الذين وصلوا مع الأثقال وتعلّقوا بالحبال، فما وجدوا مكاناً للجلوس، فظلّوا واقفين وهم مع ذلك خائفين على أزهارهم وأحجارهم قد استعبدتهم فهم لا يفكّرون إلا بها، فذبلت الأزهار، وزال ألق الأحجار، وتعفنت أزهارهم، وأثّرت في أعناقهم أحجارهم.

فلم يجدوا مناصاً بعد ذلك إلا إن يلقوا بها في مياه البحر فراراً من أذاها، ولكن بعد أن ظهرت فيهم الأمراض والأسقام، فلمّا وصلوا الوطن وصلوا مرضى؛ يتأوهون من الآلام ويشكون من الأسقام.

وسكت بلوهر عن الكلام، ثمّ قال:

- فهذا يا ابن الملك مثال أصناف أهل الدنيا في انشغالهم بحظوظهم فيها ونسيانهم لأنفسهم؛ من أين جاءوا وإلى أين المسير، وغفلتهم عن المصير وعواقب الأمور.

فكيف يغترّ العاقل البصير بأحجار الأرض وهي الذهب والفضّة والجواهر وهشيم النبات، وهي زينة الحياة الدنيا؟! ولا شيء يصحب الإنسان عند الموت؛ بل إنه يصير عليه وبالاً وأثقالاً؛ وهو مع ذلك خائف عليه حزين يتقلّب في فراشه ليلاً، خائفاً متوجساً قلقاً، فهذا يخاف على تجارته، وذاك يخاف على عمارته، وثالث على زروعه وحقوله، وقد أحاطت به أوهام الفقر وأشباح الإفلاس.

قال يوذاسف وقد دمعت عيناه رقّة بعد أن لامست الكلمات قلبه:

- إنّ هذا المثل لأعجب؛ فزدني مثلاً للدنيا وصاحبها المغرور بها المتهاون بما ينفعه فيها!

حكاية القرناء الثلاثة

قال بلوهر الحكيم:

- ـ قيل إنّ رجلاً كان له قرناء ثلاثة؛ فانظر يا ابن الملك إليه كيف يؤثر أحدهم على الناس جميعاً! انظر إليه كيف يركب الأهوال من أجله! وكيف يتحدّى الأخطار في سبيله! وكيف يعمل ليل نهار من أجل تأمين كلّ ما يريده ويطلبه.

كلّ همّه الترفيه عنه وإدخال السرور والبهجة عليه؛ فلا يردّ له طلباً ولا يرفض له رغبة؛ بل إنه يكاد يعبده.

وانظر إليه في علاقته مع القرين الثاني؛ إنه يحبه كثيراً، ولكن ليس كالأوّل، فهو يكرمه ويحبه ويلاطفه ويخدمه ويطيعه ويعطيه وينفق عليه.

وانظر إليه كيف يعامل القرين الثالث بـازدراء! وكيف يحتقره ويستثقل حضوره ولا يكرمه ولا يودّه أبداً ولا يعطيه إلا النزر القليل القليل!

وذات يوم وفيما كان الرجل متمدّداً في فراشه، جاء جلاوزة الملك ليأخذوه،

فلمّا شعر بالخطر، استنجد بقرينه الأوّل الذي يحبّه أشدّ الحب؛ بل يكاد يعبده من شدّة حبّه له، وقال له:

- تعرف جيداً حبّي لك وإيثاري إيّاك وتضحياتي من أجلك، وكم عانيت في سبيلك! وهذا يومٌ أحتاجك فيه؛ فماذا عندك تعينني به؟

فقال قرينه الأوّل:

- ما أنا لك بصاحب بعد الآن ولا أنت بصاحبي، وإنّ لي أصحاباً غيرك يشغلونني عنك، وهم اليوم أولى بي منك، ولكن انتظر ربما أعطيتك ثوبين تنتفع بهما.

فما كان من الرجل إلا أن استنجد بقرينه الثاني، وقال له:

- إنك تعرف لطفي بك وإكرامي لك وحبّي إيّاك وحرصي على إدخال السرور عليك، وكم تعبت من أجلك، وهذا يوم أحتاج فيه إليك؛ فماذا لديك؟

فقال القرين الثاني:

- إني مشغول بنفسي عنك، وكلّ واحد يهتمّ بنفسه، وليكن في علمك أنه قد انقطعت علاقتي معك، فلا رابطة بيني وبينك، كما أنّ طريقي يختلف عن طريقك، ولكن انتظر سأسير معك بعض الخطى وهي بالطبع لا تنفعك ولا تفيدك، وبعدها أعود وأنصرف إلى ما هو أهمّ لديّ منك.

هنالك استنجد الرجل بقرينه الثالث الذي يزدريه ويستثقل حضوره ولا يكرمه ولا يودّه، فقال له:

- إني في غاية الحياء منك وأشعر بالخجل من تصرّفي معك فيما مضى من الأيّام، ولكنّ الحاجة اضطرتني إلى أن استنجد بك؛ فهل لديك

شيء تنفعني به؟

فأجابه القرين الثالث:

- سوف أرافقك ولن أتخلّى عنك وأواسيك وأحافظ عليك وأدفع عنك، فأبشر وقرّ عيناً، فانّي صاحبك ورفيقك وصديقك وقرينك الذي لا يخذلك أبداً، ولا تأسف على أنك أعطيتني القليل، فقد كنت أحفظه وأنمّيه وأستثمره من أجلك؛ بل إني تاجرت به وحصلت لك على أرباح مضاعفة،

فإن لك عندي أضعاف ما أعطيتني، وإنّي آمل جداً بأن ذلك يرضي عنك الملك ويجعل لك فرجاً من المأزق الذي أنت فيه.

فقال الرجل في حياء وخجل:

- لا أدري على أيّ الأمرين أنا أشدّ حسرة؛ على ما فرّطت في القرين الصالح، أم على ما سعيت وعملت وتفانيت من أجل القرين الغادر؟!

قال يوذاسف:

- أيّها الحكيم! فمن هم هؤلاء القرناء الثلاثة؟

قال بلوهر:

- ـ القرين الأوّل؛ هو المال والثروة، لا يكون نصيب الإنسان منه إلا قطعتي قماش فقط كفناً له! والقرين الثاني؛ هو الأهل، وهل نصيب الإنسان منه إلا خطوات يسير الأهل فيها وراء نعشه؟! والقرين الثالث؛ هو العمل الصالح الذي يرافقه ويشفع له في حضرة الملك.

قال يوذاسف متأثّراً:

- إنّ هذا لهو الحق الواضح، فزدني مثلاً للدنيا وغرورها وصاحبها المغرور بها المطمئن إليها.

حكاية المملكة الغريبة

قال بلوهر الحكيم:

- انظر يا ابن الملك إلى قصّة هذه المملكة الغريبة، انظر إلى أولئك الرجال المسلحين الذين يجوبون المدينة بحثاً عن رجل غريب، يتصفحون الوجوه بحثاً عن رجل لا يعرف أسرار هذه المملكة العجيبة.

وانظر إلى هذا الرجل الغريب الذي يرتدي ثوباً مزّقه الفقر، وانظر إلى قدميه العاريتين، فهو حاف، وانظر إلى عينيه الزائغتين، انه ولا شك جائع؛ لأنّه يتّجه إلى سوق المدينة علّه يعثر على كسرة خبز أو يصادف إنساناً يرحمه فيتصدّق عليه، فإذا به يصادف حرساً وجنوداً مسلحين، فانخلع قلبه خوفاً.

إنه لم يرتكب جرماً، ولكنّه يخاف من منظر الجنود المسلّحين يحملون رماحهم، أراد أن يهرب لكنّهم عند ما أبصروا به اتّجهوا إليه وأمسكوا به دون سؤال.

استغاث الرجل الغريب؛ تضرّع، بكى، ولكنّهم حملوه كما تحمل الجنازة، وقادوه كما تقاد النعجة، واتّجهوا به إلى تلال خضراء لاحت له في أطراف المدينة.

مرّوا به خلال الحقول والحدائق، وعبروا السواقي والمروج؛ إلى أن وصلوا إلى قصر كبير تحيطه الأسوار العالية وأبراج الحراسة.

فلمّا رأى الرجل أنه يستغيث فلا يغاث، ويبكي فلا يلتفت إليه أحد، استسلم لمصيره؛ بل إنه نسي جوعه. اتّجه الجنود نحو بناء من الرخام الأبيض، وسلّموا الرجل الغريب إلى رجل ضخم عملاق أسمر الوجه ومعه شخص آخر.

ولمّا دخل الرجل الغريب إلى ذلك البناء، إذا به يرى البخار ينبعث من تحت الأبواب.

أدخل العملاق الرجل الغريب في غرفة وأمره أن يخلع ثوبه، فخلع ثوبه حيث وضعوه في صندوق مركون في الزاوية.

وأومأ العملاق إلى رجالٍ يقفون كالخدم، فتلقفوا الرجل وأدخلوه في مكان فسيح يتوسطه حوض ملئ بالماء الساخن، وباشر الرجال عملهم؛ كان أحدهم يصب الماء على الرجل الغريب، وآخر يقوم بتدليكه بقطعة من الليف يغمسها بمادة صابونية حتى أزالوا عن جسمه الوسخ.

وجاء الحلاق والمزيّن، فأزال عنه الشعر الزائد، وقص له شعر رأسه حتى أصبح جسمه مصقولاً يتألق، ثم جاءوا له بالعطور الفواحة والدهن اللماع، وأخذوه إلى غرفة وألبسوه حلّة حريرية ناعمة مطرزة مزركشة موشاة بالخيوط الذهبية، وقدّموا له حذاءً مرصعاً بالجواهر، واتّجهوا به نحو البلاط، فلاح له عرش ذهبي.

الرجل الغريب لا يكاد يفهم شيئاً ممّا يجري، ظنّ نفسه في حلم، ففرك عينيه وصفع خدّه لكي يستيقظ، ولكن دون جدوى، إن كلّ شيء يجري على أرض الواقع.

وضعوا التاج على رأسه، وقادوه نحو العرش ليجلس، ولمّا استقرّ به الجلوس رأى الجميع ينحني له ويهتفون بصوت واحد:

- سمعاً وطاعة للسلطان.

ظلّ الرجل الغريب ساكتاً تدور عيناه في محجريهما، ينتظر نهاية لهذه الحكاية، فجأة زقزقت عصافير بطنه، فتذكر جوعه، كان يتمنى كسرة خبز تسدّ رمقه، تمتم بصوت مخنوق: كم أنا جائع؟!

فإذا بالخدم وبأسرع من لمح البصر يمدّون الخوان، ثمّ رأى آخرين يدخلون يحملون الأطباق فيها من الطعام ما لذ وطاب من البط المشوي والخبز الطازج الطري وألوان الفاكهة وثمار الفصول الأربعة، ومن أشكال الحلوى، فامتلأ الخوان بأصناف الطعام من الحامض والحلو والمالح.

وانحنى رجل يضع على رأسه عمامة تشع في مقدّمتها ياقوتة حمراء، وقال:

- تفضّلوا يا جلالة السلطان.

التفت الرجل الغريب حوله ليرى من يخاطب، فإذا هو لا يرى سوى شخصه متربعاً على العرش.

تمتم بصوت متقطع بعد أن بلع ريقه:

- ـ كلّ هذا الطعام لرجل واحد؟!

قال الذي انحنى له:

- ـ وأنا أيضاً؛ إنّ كبير الوزراء يجلس معكم ويتحدّث مع جلالتكم في شؤون المملكة.

نزل الرجل الغريب مرتبكاً حذراً وهو لا يصدّق؛ هل سيأكل من لحم البط أو أنه سيأكل جلدات بالسوط؟!

تقدّم أحد الخدم يحمل طبقاً فارغاً، وتقدّم كبير الوزراء وهو يمدّ يده باحترام إلى التاج:

- ـ بعد إذنكم يا جلالة الملك والسلطان.

ورفع التاج ليضعه فوق الطبق.

وفي الأثناء تقدّم خادم آخر يحمل إبريقاً، وثالث يحمل طستاً، الخادم الذي يحمل الإبريق صبّ الماء على يديه مع أنهما ما تزالان نديتين من الحمّام!

مدّ الرجل الغريب الجائع يديه إلى لحم البط وراح يمزّقه تمزيقاً، ثمّ بطش بالخبز والحلوى بطشاً، والتهم ألوان الفاكهة دون رحمة ولا شفقة!

قال كبير الوزراء:

- ـ أكلت هنيئاً مريئاً يا مولاي السلطان، إنّ هذه المملكة مملكتك وأنا رهن إشارتك، تحكم ما تشاء ليس عندنا إلا السمع والطاعة.

امـتلأت بطن الملك الجديد بالطعام، فتثاءب للحاق بجيش النيام ومشاهدة الأحلام.

قال كبير الوزراء:

- ـ تفضل يا مولاي السلطان إلى غرفة النوم للاستراحة والاستجمام والنوم بسلام.

دخل الملك إلى حجرة واسعة يتوسطها سرير يكفي لأربعة أشخاص سمان، وما هي إلا لحظات حتّى وجد نفسه فوق سرير، وثير رأسه فوق وسائد من الإستبرق والحرير، فشعر بأن جسمه يطفو على سطح بحيرة هادئة أو في قارب يتهادى وينساب.

سكت بلوهر ليستأنف الحكاية بعد لحظات؛ فقال:

- ـ وهكذا يا ابن الملك أمضى الملك الجديد ذلك اليوم العجيب، كان في صباحه جائعاً حافياً ممزق الثياب، وأمسى شبعان ريّان يرتدي أفخر الثياب.

ولمّا استيقظ الملك ووجد نفسه في حلة من أفخر الحلل وقد ضربت دونه الستائر والكلل وبطنه مملوءة بالطعام وقد ارتوى من النوم بسلام، بدأ يصدّق بأنه السلطان وأنه الملك وصاحب التاج والصولجان.

ولما جلس على العرش في صباح اليوم التالي أسند ظهره باسترخاء، ونظر إلى الأعيان والوزراء بنظرة فيها ازدراء واستعلاء.

وتناهى إليه صهيل الخيول ونباح الكلاب، فسأل:

- ـ ما هذا أيها الوزير؟!

فقال كبير الوزراء:

- ـ إنها رحلة صيد لسلطان البلاد، ففي لعبة الصيد والصياد تخفيف من عناء حكم البلاد وتدبير شؤون العباد.

وهكذا؛ ذهب الملك الجديد في رحلة للترفيه والصيد.

فلم تمض سوى أسابيع حتّى اغترّ الملك تماماً بسلطانه وتاجه وصولجانه، فأكثر من تناول الطعام والذهاب إلى الحمام، وامتلأ قصره بالغلمان والجواري والمطربين والمطربات، وأكثر من إقامة الحفلات والسهرات.

وهكذا تمرّ الساعات والأيّام والشهور، وهكذا مرّ عام بالتمام.

كان الملك متربعاً فوق عرشه في ذلك الصباح، كان وحيداً في البلاط، لا وزراء ولا أعيان؛ فهل البلاد في عطلة أو أن ذلك بسبب سهرة البارحة والحفلة ويا لها من حفلة؟!

واستغرق في الفكر آه لقد مرّ عام.. في ذلك الصباح قبل عام كنت قرب السوق جائعاً دون طعام، وحاف دون حذاء، ممزّق الثياب، وها أنا اليوم في هذا الصباح شبعان شبعان وريّان ريّان أرتدي أفخر الثياب وأنام في الليل والنهار أعيش كالملوك في عزّ وفي فخار.

وفيما كان هذا الملك مستغرقاً في الخيال، إذا بصيحة تكسر صمت المكان، وإذا بمجموعة من الجنود تقتحم البلاط وتتّجه إليه؛ فصرخ:

- ـ أنا السلطان؛ اغربوا عن وجهي واخرجوا من هذا المكان!

ولكن الجنود الغلاظ الأجسام، اندفعوا نحوه وانتزعوه من عرشه واتّجهوا به إلى ذلك البناء الذي جاءوا به إليه قبل عام إلى ذلك الحمام المبني من صخور

الرخام، فأدخلوه ذات الغرفة، وخلعوا عنه التاج والحلّة وثياب الحرير وجردوه من كلّ شيء.

ثمّ فتحوا ذلك الصندوق واستخرجوا ثوبه الممزق القديم، وأمروه أن يرتديه ووكزه أحد الجنود برمحه، فارتدى ثوبه وعاد إليه رعبه.

وأغلقوا عليه الغرفة كالزنازين وأصبح هو كالمساجين، فما يدري ماذا سيحلّ به بعد حين! فلمّا حلّ المساء وأظلمت السماء، انفتح الباب بقوّة وأخرج الرجل عنوة، واتّجهوا به في الظلام وجميع أهل المدينة نيام، وقاد الجنود كالكلب ذلك الرجل الممزق الثياب، حتى وصلوا إلى ساحل البحر، فدفعوه إلى داخل القارب وجدفوا طوال الليل إلى السحر، حتّى وصلوا إلى جزيرة صغيرة، فألقوه في الرمال وعادوا من حيث أتوا.

فلمّا طلع الصباح وبزغ نور الشمس ولاح، وجد الرجل نفسه وحيداً في جزيرة جرداء كالصحراء، ولاحت له جماجم وعظام وأشلاء.

وهكذا انقطع عن ذلك الرجل الخبر ولم يُعرف عنه أثر.

وسكت بلوهر الحكيم عن الكلام، ثمّ قال:

- ـ وأمّا خبر الجنود، فانهم لما أصبح الصباح انطلقوا في شوارع المدينة، فاتّجهوا إلى كلّ حدب وصوب يبحثون عن رجل غريب ممزّق الثوب.

وفي نهاية المطاف لاح لهم رجل غريب جالس عند ضفة النهر، وكان الرجل بالرغم من شدّة الفقر يجيل النظر في وقار ويتأمّل الأصداف والمحار والورود والأزهار، ثمّ ينظر إلى السماء والطيور سابحات في الفضاء.

وإذا بالجنود يحيطون به وينتزعونه انتزاعاً، ثمّ يمضون سراعاً متّجهين إلى التلال الخضراء مخترقين المزارع والحقول والحدائق الغنّاء إلى أن وصلوا أسوار القصر، ثمّ أخذوه إلى الحمّام المبني من صخر الرخام.

وجرى لهذا الرجل ما جرى للأوّل؛ غير أنه تأمّل وفكّر، واستغرب الأمر واستنكر، وأدرك أنّ في الأمر سرّاً وأي سرّ؟!

فلمّا أُجلس على العرش ووضعوا التاج على الرأس، استغرق في الفكر أكثر فأكثر، انحنوا له وخاطبوه يا جلالة السلطان ويا مالك البلاد! نحن رهن إشارتك تأمر فنطيع، وتنهى فنطيع.

ثمّ مدّوا الخوان وحملت الأطباق المليئة بالطعام والشراب وبكلّ ما لذ وطاب، فأكل يسيراً من الطعام واكتفى ونهض عن المائدة وتنحى؛ وهو في طوال الوقت مستغرق في الفكر يريد اكتشاف السرّ!

ومرّت أيّام والرجل ما يزال يفكّر لما يجري مستنكر، ثمّ إنه قرّر أن يبحث عمّن يحلّ له هذا اللغز.

وفي ليلة من الليالي، ارتدى الملك ثوباً بسيطاً بعد أن خلع حلّة الملوك وتسلّل إلى خارج القصر لا يعلم به أحد، وأخذ طريقه إلى المدينة، ينظر في وجوه الناس، فلعلّه يرى من يسأله ويستوضحه ويفسّر له كلّ ما جرى عليه؛ حتّى وقعت عيناه على شيخ وقور قد اشتعل رأسه شيباً وحاز من التجارب نصيباً.

فسلّم الرجل على الشيخ وحيّاه، وقال له:

- ـ إنّي رجل غريب في هذه الديار، وقد رأيت أمراً حيّرني؛ فأنا في فكر دائم لا يقرّ لي قرار.

قال الشيخ بوقار:

- ـ وما الذي رأيت فحيّرك؟!

قال الرجل:

- ـ رأيت جنداً هجموا على رجل فقير، فألبسوه التاج وقلّدوه أمر هذه

المملكة، فإذا هو في الصباح رجل فقير وفي المساء ملك كبير؛ فهل عندك ما يشفي الغليل ويحلّ هذا اللغز الجليل؟!

فأطرق الشيخ ثمّ رفع رأسه، وقال بحذر:

- ـ سأفضي إليك بالسر، فكن على حذر وأحدثك بحقيقة الخبر، واعلم أنّ هذا الرجل الذي رأيته في الصباح فقيراً ثمّ أصبح ملكاً كبيراً إنّما هو رجل مسكين، فلا تغبطه على ما وصل إليه وما أصبح فيه من ملك كبير وقصر منيف وسلطان وصولجان؛ لأنّه لن يمرّ عام حتّى يجرّدوه من ملكه وسلطانه، ثمّ يأخذونه إلى جزيرة جرداء كالصحراء فينبذونه، فيهلك جوعاً وعطشاً كما فعلوا من قبل برجال غرباء ملّكوهم سنة واحدة، ثمّ نبذوهم هناك في العراء.

وهذه سنّة في أهل هذه المدينة؛ فإنّهم يأخذون الرجل الغريب الذي يجهل أمرهم، فيملّكونه عليهم عاماً واحداً ثمّ ينبذونه ويطردونه، وهو لجهله لا يشك في أنّ ملكه دائم وحكمه قائم، فإذا انقضت سنة من ملكه، أخرجوه ونبذوه عرياناً مجرّداً سليباً، فيقع في بلاء وشقاء لم يكن يخطر على باله ولم يحدّث به نفسه، إلى أن يموت في تلك الجزيرة القاحلة.

فلمّا سمع الملك هذا من الشيخ، شكره على ذلك، ونهض وانصرف إلى القصر، ودخل خلسة كما خرج خلسة.

وأمضى ليلته يفكّر في عاقبة أمره، فلمّا كان السحر انقدحت في ذهنه الفكرة من بعد طول تأمّل وتفكير فيما سيؤول إليه أمره والمصير، فنزلت عليه الفكرة برداً وسلاماً، وحينئذ أغمض عينيه ونام.

وما إن طلع الفجر ولاح ثمّ أشرقت شمس الصباح؛ حتّى كان الملك جالساً فوق عرشه متيقظاً منتبه الحواس لم تبد عليه آثار السهر وطول التفكير حتى السحر.

وجـاء القادة والــوزراء، فصرفهم إلى أعمالهم، ثمّ طلب إحضار رئيس المهندسين وكبير البنائين، فلما حضرا صرف الجميع ولم يبق غيرهما، فأخذهما إلى ناحية من نواحي القصر وأفضى إليهما بعزمه على بناء قصر جديد وعيّن لهما مكانه، وقال لهما:

سأفتح لكما الخزائن تأخذان منها ما تشاءان، فرئيس المهندسين يخطّط ويضع التصاميم، وكبير البنائين يتحمّل مسؤولية التنفيذ، وثمة أمر آخر أريد أن يكون أمر البناء سرّاً لا يعلم به أحد، وأن يجري العمل على قدم وساق ليل نهار.

أريد أن أرى بعد شهور وأقصاها عام قصراً منيفاً من الرخام يتوسط جزيرة «سين» تحوطه الحدائق الغناء والمزارع الخضراء.

وهكذا؛ بدأت الزوارق والقوارب تنطلق إلى الجزيرة تحمل المؤن ومواد البناء والعمال وأصحاب الحرف.

وكان الملك يتابع عمليّات البناء، وحفر الآبار ونقل فسائل الأشجار، فلمّا مضت عشرة أشهر جاء رئيس المهندسين وكبير البنائين ينقلان للملك بشرى اكتمال القصر وحدّثاه عن هطول الأمطار ما ساعد في نمو الأشجار، وتدفق السواقي والأنهار.

وراح الملك يرسل إلى تلك الجزيرة الغلمان والجواري، وتم تأثيث القصر بأنواع الأثاث الفاخر المرصّع بالدرّ والجواهر.

وهكذا؛ أصبحت الجزيرة المهجورة معمورة، وبات القصر جاهزاً للاستقبال، وبات الرجل في أشدّ الاستعجال؛ يترقّب نهاية العام واكتمال الشهور والأيّام.

فلمّا انقضت السنة، جاء الجنود فأخذوه، وكان من شدّة سروره مشرق الوجه متبسّماً منشرح الصدر متأهباً، ويعرف أنّ عاقبة أمره أنه سيعيش في الجزيرة متنعماً.

فالرجل الأوّل قضى على نفسه بجهله، وأصبح ملكه وبالاً عليه، والرجل الثاني فاز بعقله وفكّر في عاقبة أمره، فآل إلى ما آل إليه.

وسكت بلوهر عن الكلام، ثمّ قال:

- ـ وإني آمل أن تكون ذلك الرجل يا ابن الملك الذي لم يستأنس بالغرباء ولم يغترّ بالسلطان، وأنا الرجل الذي تبحث عنه ولك عندي ما تنشد من المعرفة.

قال يوذاسف:

- ـ صدقت أيّها الحكيم، أنا ذلك الرجل الذي يبحث وأنت ذلك الرجل المطلوب وأنت ضالّتي التي بحثت عنها، ولقد وصفت لي حال الدنيا فأحسنت الوصف، فأنا أرى الآن فناءها وزوالها، وقد زهدت فيها؛ لأنّها لا تساوي شيئاً، فهي أوهام وخيال وسراب وظلال وكلّها إلى زوال؛ فصف لي الآخرة كما وصفت لي الدنيا.

العالم الآخر

أطرق بلوهر ساكتاً واعتصم الصمت فكأنّه دخل إلى محراب التفكير مستغرقاً في عالم آخر، وفي الأثناء دوّى الرعد بعد التماع البروق، ثم تناهى إلى الأسماع وشوشة المطر المنهمر، وكان الزمن يترقرق كمياه الساقية.

رفع بلوهر الحكيم رأسه ونظر إلى يوذاسف بعينين نديتين بالدموع، ثمّ قال:

- ـ إنّ الزهد في الدنيا يا ابن الملك مفتاح الرغبة في الآخرة، وإنّ التوجّه إلى العالم الآخر هو الخطوة الأولى في الطريق إلى دخول ذلك العالم المفعم بالمسرّات الخالدة، حيث عالم الملكوت.

وكيف لا تزهد في الدنيا يا يوذاسف وقد وهبك الله نعمة الفكر وآتاك من

العقل ما آتاك؟! وكيف لا ترغب في الآخرة وأنت ترى الدنيا كلّها تتجه إلى الزوال؟! فالدنيا بأسرها وعلى كثرتها إنما يجمعها أهلها لهذه الأجساد الفانية؛ لأن الجسد لا قوام له ولا يمكنه أن يقاوم عاديات الزمن وصروف الحياة؛ فالحرّ يذيبه، والبرد يجمّده، والسموم تفتك به، والماء يغرقه، والشمس تحرقه، والجراثيم في الهواء تسقمه، والحيوانات الكاسرة تفترسه، والطيور الجارحة تنقره، والحديد يقطعه، والصدمات تحطمه، وهو ممتزج بطين من ألوان الأسقام وأنواع الأوجاع والأمراض، فهو مرتهن بها مترقب لها متوجس وَجل منها، لا أمل له في السلامة من مهاجمتها، محاصر بالآفات السبع حيث لا خلاص من أسرها؛ وهي: الجوع والظمأ والحَرّ والبرد والألم والخوف والموت.

وأمّا ما سألت عن عالم الآخرة، فإني آمل أن تجد ما تتصوّره بعيداً قريباً، وما كنت تظنّه عسيراً يسيراً، وما تحسبه قليلاً كثيراً.

النسّاك

قال يوذاسف:

- ـ أيّها الحكيم! أريد أن أسألك عن أولئك الناس الذين كان أبي يأمر بإحراقهم بالنار ونفيهم من البلاد؛ هل هم أصحابك؟

قال بلوهر:

- ـ نعم؛ هم أصحابي وأصدقائي وأحبّائي.

قال يوذاسف:

- ـ لقد سمعت بأن الناس أجمعوا على معاداتهم وذمّهم ووصفهم بالمجانين!

قال بلوهر:

- نعم؛ قد كان ذلك.

قال يوذاسف:

- فما السبب في إجماع الناس على عدائهم وكراهيتهم؟!

قال بلوهر:

- لأنّهم يقولون الصدق ويمقتون الكذب ويحبون العلم وينفرون من الجهل، ينظرون إلى الحياة نظرة تفكّر واعتبار، يعبدون الله في الليل والنهار، ترى أحدهم يعمل بيده ويأخذ أجرة عمله ولا يمدّ يده إلى غيره ولا يمدّ عينيه إلى ما في يد غيره، لا يؤذي أحداً ويصبر على إيذاء الناس له.

قال ابن الملك:

- فلماذا اتّفق الناس على عدائهم وأجمعوا على مقتهم مع أنّ الناس مختلفون فيما بينهم؟! يتشاجرون ويتنازعون لا يتفقون على شيء؛ إلا على نصب العداء لأصحابك؟! إنّ هذا ليحيّرني! فهل تفسّر لي الأمر!

الإنسان والكلاب!

قال بلوهر الحكيم بحزن وأسى:

- يا ابن الملك! إنّ مَثل هؤلاء مثل كلاب اجتمعت على فريسة تنهشها وتتخطف لحمها يهار بعضها على بعض وينبح بعضها على بعض، يحاول كل كلب أن يدفع غيره ويستولي على نصيبه، فانظر يا ابن الملك إليها وهي تتهارش من أجل هذه الميتة التي تزكم رائحتها الأنوف، فهذا كلب أسود يهرّ على الأبيض والأبيض يهرّ على الأبقع.

فجأة يلوح رجل قادم يقترب! وإذا بالكلاب التي تتهارش فيما بينها يكفّ

بعضها عن البعض، وإذا بها تجتمع فيما بينها وتنبح في وجه الإنسان! وقد تصوّرت الكلاب أنّ هذا القادم يريد أن يأخذ نصيباً من الفريسة النتنة!! وهو في الحقيقة ينفر منها؛ غير أنّ الكلاب عرفت غربته عنها واختلافه، فاستوحشت منه واستأنست ببعضها البعض؛ على الرغم من اختلافها مع بعضها البعض وتنازعها على تلك الميتة.

ولهذا؛ اجتمعت ضدّه الكلاب ونبحت عليه، حتى إذا مضى وابتعد عادت إلى التهارش فيما بينها من جديد.

يا ابن الملك! إنّ مَثل الدنيا مَثل هذه الميتة، ومَثل أصناف الكلاب مَثل أصناف الناس الذين يتقاتلون على الدنيا ويسفكون دماء بعضهم البعض من أجلها.

ومَثل الرجل الذي اجتمعت عليه الكلاب كمثل صاحب الدين الذي رفض الدنيا وزهد فيها، فهو لا ينازع الناس عليها ومع ذلك فإنهم يعادونه لغربته بينهم!

قال يوذاسف:

- لقد أحسنت في التصوير ووفقت في التفسير وإنّ هذا لأمر عجيب!!

قال بلوهر:

- فإن عجبت فاعجب من هؤلاء الناس؛ أنّهم لا همّ لهم إلا هذه الدنيا يتكالبون عليها ويتقاتلون من أجلها؛ فهم ينفقون سنوات العمر في جمع الثروات والتفاخر بها والاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من حطامها؛ ومع ذلك فإنهم إذا رأوا أحداً ترك هذه الدنيا لهم وتخلّى عنها كانوا أشدّ حقداً عليه من الذي ينافسهم عليها.

فأي حجّة لله يا ابن الملك أدحض من تعاون المختلفين ضد من لا حجّة لهم عليه؟

قال يوذاسف:

- أيّها الحكيم انظر في حاجتي!

الطبيب والمريض

قال بلوهر :

- إنّ الطبيب الشفيق إذا رأى جسم المريض وقد فتكت به السموم والجراثيم وأوهنته وأذاب المرض لحمه ثمّ أراد أن يقوّيه ويسمنه، فانّه لا يغذّيه بالطعام الذي يمدّه بالطاقة والقوّة؛ لأنّه يعلم تماماً أنّ إدخال الطعام على الجسم في مثل هذه الظروف له مردود سلبي على الجسم.

ولذا؛ فإنه يعالجه أوّلاً بالدواء وبالحميّة من الطعام يعني منع الطعام عنه ريثما يكافح السموم ويبعد عن الجسم خطر الجراثيم، وبعدها يسمح له بتناول ما هو مفيد ونافع من الطعام والغذاء؛ وحينئذ يسترد الجسم عافيته وحيويته.

وهكذا؛ فإنّ طريق العلاج للجسم المريض هو في الدواء أولاً ثمّ الغذاء، ومتى تخلّص الجسم من السموم والجراثيم انفتحت شهيته على الغذاء وحينئذ يتناول ما هو مفيد من الطعام.

قال يوذاسف:

- أخبرني عن غذائك من طعام وشراب؟!

الملك الطريد

قال بلوهر:

- قيل إنّ ملكاً من الملوك كان يحكم مملكة عظيمة، وكان له جيش كبير وثروة هائلة، وبدا لذلك الملك أن يقوم بغزو مملكة أخرى والاستيلاء عليها، طمعاً بالتوسع في الأرض والثراء، فجهّز جيشه

واصطحب معه أسرته وهو لا يشك في أنّ النصر سيكون حليفه.

واصطدم الجيشان في معارك طاحنة، ثمّ دارت الدائرة على هذا الملك ولم يجدّ بُدّاً من الفرار بعد أن رأى جيش العدو يحتلّ معسكره ويتقدّم نحو مقرّه، فهرب وأخذ معه زوجته وأولاده الصغار.

وكانت قوّة من جيش العدو تطارده، فوصل إلى غابة عند حافة النهر في المساء، فنزلوا عن خيولهم وتركوها تسرح خارج الغابة حتّى لا يكتشف العدو وجودهم إذا سمعوا صهيلها.

ودخل الملك وأسرته في الغابة، واختبأوا في مكان كثير الأشجار، وباتوا ليلتهم خائفين يصغون بخوف ورعب إلى وقع حوافر خيل العدو وهي تهزّ الأرض بحثاً عن الملك الهارب الذي وجد نفسه محاصراً، فهو لا يستطيع عبور النهر ولا يمكنه أن يخرج إلى البريّة؛ لأنّ العدو سوف يكتشفه بسرعة، فظلّوا محاصرين بين برد وجوع وخوف.

ومرّ يومان وهم في أسوأ حال، ثمّ مات أحد أولاده، فألقوه في النهر، وكان ابناه يتضوّران جوعاً ويبكيان، فما كان منه إلاّ أن تسلل إلى حيث ألقى بجثة ابنه فانتشلها، ثمّ شواها بالنار وجاء بها إلى ابنيه وزوجته، فما تظنّ يا يوذاسف هل يأكل الملك من لحم ابنه بشهية ونهم أو يكتفي بشيء يسير يسدّ الرمق؟!

فقال يوذاسف:

- بل يكتفي بالقليل القليل!

قال بلوهر:

- كذلك أكلي وشربي يا ابن الملك في هذه الدنيا.

قال يوذاسف:

- فما هذا الأمر الذي تدعوني إليه أيّها الحكيم، هل هو من ابتكار البشر توصلوا إليه من خلال عقولهم، فاختاروه طريقاً ومسلكاً في الحياة أو هو من خالق البشر؟ هل هو من الأرض أو من السماء دعاهم إليه فأجابوا؟

الطريق الساطع

قال بلوهر:

- إنّ هذا الأمر لَأسمى من أن يكون من ابتكار أهل الأرض، ولو كان من الأرض وأهلها، لانصبّ في داخلها وتزيينها ولذائذها ومتعها وفي لهوها ولعبها وشهواتها، ولكنّه من خارج الأرض، وهو دعوة ساطعة من الله وطريق مضيء مستقيم، ينقد أهل الدنيا في أعمالهم، مناهض لهم، يستنكر عليهم اتّباع أهوائهم، ويدعوهم إلى طاعة خالقهم وربّهم.

وإنه لأمر واضح لمن تأمّل مستور مجهول على من جهل، ولسوف يظهر في جلاء بعد خفاء وتكون له كلمة عليا.

قال يوذاسف:

- صدقت أيّها الحكيم.

قال بلوهر:

- إنّ بعض الناس فكّر وتأمّل قبل قدوم الرسل فأصاب، وبعضهم جاءته الرسل بعد قدومها فأجاب، وأنت يا ابن الملك من الذين فكّروا بعقولهم فأصابوا.

قال يوذاسف:

- هل تعرف أحداً من الناس يدعو إلى الزهد في الدنيا غيركم؟

قال بلوهر:

- لا أعرف في هذه البلاد أحداً، ولكن في سائر الأمم ثمّة من يدّعون ذلك بألسنتهم فقط، وليس لهم استحقاق في أعمالهم وسلوكهم، فطريقنا يختلف عن طريقهم.

قال يوذاسف:

- وكيف صرتم أولى بالحق منهم وقد تلقّوا هذا الأمر من نفس المصدر الذي منه جاءكم؟

قال بلوهر:

- إنّ الحقيقة والحق قادم كلّه من الله وهو مصدر الحقيقة، وقد دعا الله إلى هذا الأمر، فتلقّاه البعض وتحمّلوا ثقل المسؤوليّة في الأداء وقبلوه بشروطه وكانوا أمناء في نقله، لم يظلموا، لم يخطئوا، لم يضيعوا.

وتلقّاه بعض آخر فتخاذلوا عن حمله، ولم تكن لديهم الإرادة الكافية لأدائه، ورأوه ثقيلاً جدّاً، فلم يتحمّلوه وضيّعوه.

ولا يتساوى المضيّع مع الحافظ، والمفسد مع المصلح، والصابر مع الجازع؛ ومن أجل ذلك كنّا أحقّ به منهم وأولى.

وسكت بلوهر عن الكلام قليلاً، ثمّ قال مستأنفاً حديثه:

- اعلم يا بن الملك أنه ليس ثمّة كلام يجري على لسان أحد منهم حول الدين والزهد في الدنيا والدعوة إلى الآخرة، إلا وهو اقتباس عن أصل الحق الذي عنه أخذنا واقتبسنا؛ غير أنّ الفرق ما بيننا وبينهم هو في الإضافات التي أضافوها إلى الدين، وهي إضافات كان الهدف من ورائها تحقيق أطماع دنيويّة تسببت في عرقلة تحركهم ومسارهم والاستمرار في مواصلة الطريق المرسوم لهم، فأصبحت الدنيا التي هي دار ممر هي المقرّ، وصارت الدنيا التي هي وسيلة وأداة هدفاً لهم وغاية عليا.

قال يوذاسف:

- ألا تضرب لي مثلاً عن ذلك أيّها الحكيم استعين به على إدراك هذا الأمر؟

حكاية الرجل الدليل

قال بلوهر:

- هذا مثل ضربه لنفسه وللدنيا نبيٌّ هو من أعظم الأنبياء:

في منطقة قاحلة تكثر فيها الحجارة الناتئة والصخور البركانية لبراكين خامدة كانت قد قذفت حممها منذ مئات السنين، كان قوم مسافرون قد وصلوا إلى ممرّات غبراء بين جبال جرداء وقد هبّت عاصفة هوجاء غطّت معالم الطرق ودرست آثار القوافل المسافرة؛ فإذا بالقوم حيارى لا يدرون إلى أين يتّجهون قد تاهت بهم السبل وعميت عليهم آثار الطريق، وقد هلكت حميرهم وبغالهم وخيولهم من شدّة العطش، وأيقنوا هم بالهلاك بعد أن نفد زادهم.

فتوقفوا عن المسير ينتظرون النهاية وقد فقدوا الأمل بالخلاص والنجاة، وفيما هم على هذه الحال؛ إذ لاح لهم رجل قادم يرتدي حلّة بيضاء ناصعة يقترب منهم، فنهضوا جميعاً واستقبلوه، فرأوا ما أثار دهشتهم!! كان شعره نديّاً؛ لا شك في وجود قرية خضراء أو ريف فيه حدائق غناء، وإنّه لمن القرب بحيث ما يزال شعره نديّاً.

قال الرجل: يا هؤلاء!

قالوا: يا هذا!

قال الرجل: ماذا حلّ بكم؟

قالوا: كما ترى هلكت ماشيتنا ونفد زادنا ولا نعرف إلى أين نتّجه ونسير.

قال الرجل: إن هديتكم ودللتكم على عيون ماء روّاء وحدائق غنّاء ورياض معشوشبة ومروج خضراء ما تعملون؟

قالوا جميعاً: نسمع قولك ونطيع ولا نعصي لك أمراً.

قال الرجل ذو الحلّة البيضاء:

- تعطونني العهد والميثاق على ذلك؟

قالوا:

- نعم؛ لك عهد الله وميثاقه على أن نطيعك ولا نعصيك.

قال الرجل:

- إذاً؛ اتبعوني وامشوا ورائي سوف أدلّكم على أرض خضراء وأنهار تتدفّق بالماء.

وسار الرجل والقوم يسيرون خلفه، فسلك بهم طريقاً فيه وعورة وصعد بهم بعض المرتفعات، وما هي إلا ساعات حتّى أطلوا على واد أخضر جميل؛ وإذا بنبع تتدفّق مياهه ثمّ تجري في نهر يخترق الوادي، وقد نهضت الأشجار الباسقة على امتداد النهر، في واد تظلّه الجبال الشاهقة.

ففرح القوم وقالوا: ما كنّا لنحلم بمثل هذا المكان الجميل والوادي الظليل، وعاش القوم في الوادي حياة الرفاه في طمأنينة من العيش الرغيد في ظلال من الصفاء والرخاء، فمكث فيهم عشر سنين ثمّ دعاهم إلى الرحيل.

قالوا:

- إلى أين؟

قال:

- إلى ربوع غير هذه الربوع وواد غير هذا الوادي ومياه غير هذه الماء ورياض غير هذه الرياض.

فقال أكثرهم:

- حسْبُنا هذا الوادي؛ لقد وجدناه بعد طول اليأس، وما جدوى العيش في واد غير هذا الوادي؟ وهل يوجد مكان أفضل من هذا المكان؟ كلاّ؛ لن نغادر هذا الوادي بل إننا لا نعتقد بوجود واد غيره.

وقالت طائفة منهم وهم الأقليّة:

- لقد أعطينا هذا الرجل العهود والمواثيق على أن لا نعصيه، وقد أخبرنا بوجود هذا الوادي ولولاه لهلكنا، وهو الذي قادنا إليه، وها هو الآن يخبرنا بوجود واد أفضل من هذا وأنّ هذا المكان ليس صالحاً للبقاء.

قالت الأكثريّة:

- لن نذهب معه ولن نغادر هذا المكان.

فانطلق الرجل بمن اتّبعه ورحلوا إلى الأرض الأخرى، أمّا الأكثريّة فبقيت في ذلك الوادي، وما هي إلا مدّة قصيرة حتّى فوجئوا بالعدو يهاجمهم، فأصبحوا بين أسير وقتيل.

فهذا مثل الذين أخلدوا إلى الدنيا.

وسكت الحكيم ساعة، ثمّ قال:

- وإنّ هذه الدعوة إلى مواصلة السير وعدم الإخلاد إلى الدنيا ونفي وجود عالم آخر غيرها، لم تزل تأتي وتظهر في الأرض مع الأنبياء والرسل؛ نذ فجر القرون الماضية بألسن ولغات مختلفة.

وأهل هذه الدعوة طريقهم واضح مستقيم ودعوتهم صريحة واضحة، لا فرقة

فيهم ولا اختلاف.

وكان الرسل إذا بلّغوا رسالات الله واحتجّوا على عباد الله برهة من الزمن فإنهم يسيرون على خطاهم ومنهجهم، ثمّ يأتي زمان بعد ذلك ويبدأ التغيير والانحراف ويصبح همّ أفراد هذه الأمة إشباع الغرائز وينحطّون علمياً، حتى إن العالم الذي يعرف الطريق يختار العزلة ولا يظهر علمه، فيعرف اسمه ولا يعرفون عنوانه ولا يهتدون إلى مكانه، فتغيب شمس العلم، وتتراكم ظلمات الجهل، وتتوالى القرون قرن يتبع قرناً فلا يعرفون إلا الجهل، ويزداد الجهّال استعلاءً وكثرة، ويزداد العلماء خمولاً ويقلّ عددهم.

ومع أنّ نصوص الرسالات موجودة وقد أقرّوا بنزولها؛ إلاّ أنهم مستغرقون في التأويل يتمسّكون بالظاهر ويتركون الحقيقة وهي مستقرّة في أعماق الباطن.

فهم وإن اقرّوا بالتنزيل فانّهم يتّبعون الشبهات ابتغاء التأويل، متعلّقون بالأوصاف ويتركون الحقيقة وينبذون الأحكام، فكلّ صفة جاءت الرسل تدعو إليها فنحن لهم موافقون في تلك الصفة مخالفون لهم في أحكامهم وسيرتهم، ولسنا نخالفهم في شيء إلاّ ولنا عليهم الحجّة الواضحة والبيّنة العادلة من نعت ما في أيديهم من الكتب المنزلة من الله عزّوجلّ، وكلّ من يتكلّم منهم بشيء من الحكمة، فهي لنا وهي بيننا وبينهم، تشهد لنا عليهم بأنّها توافق سيرتنا وأحكامنا، وتشهد ضدّهم بأنّها مخالفة لسنّتهم وأعمالهم، فهم لا يعرفون من الكتاب إلا وصفه ولا من الذكر إلا اسمه، فهم ليسوا بأهل كتاب حقيقة حتّى يقيموه.

قال يوذاسف:

- لماذا يأتي الأنبياء في زمان دون زمان؟ وهل لهذا مَثل أيّها الحكيم؟

حكاية الملك والأرض المَوات

قال بلوهر الحكيم:

- إنّما مثل ذلك كمثل ملك كانت له أرض مَوات؛ ولمّا أراد ذلك الملك أن يحيي تلك الأرض الموات ويحيل خرابها إلى عمران، أرسل إليها رجلاً قويّاً أميناً مخلصاً، وأمره أن يعمّر تلك الأرض وأن يغرس فيها صنوف الأشجار وأنواع الزرع، ثمّ سمّى له ألواناً من الأغراس معلومة وأنواعاً من الزرع معروفة.

وأمره بالالتزام بما أمر، وأن لا يتجاوز ذلك إلى ألوان أخرى من الغرس والزرع، وأن لا يتصرّف من نفسه بأيّ حال من الأحوال، وأنّ عليه أن ينفذ ما أمره الملك فقط.

كما أمر أن يشق في تلك الأرض نهراً، وأن يحوطها بحائط كالسور حتّى لا يدخل إلى تلك الأرض من يفسد فيها ويعبث بها.

فجاء الرسول الذي أرسله الملك إلى تلك الأرض الموات، فشقّ خلالها نهراً يتدفّق بالمياه، ثمّ حرثها وقسمها حقولاً، فغرس فيها ألوان الأشجار والزروع التي أمر الملك بزراعتها وغرسها، ثمّ شقّ لتلك الحقول جداول المياه، فنبتت الزروع وأينعت الحقول، فأحيا تلك الأرض بعد مواتها وعمّرها بعد خرابها، وأصبحت تلك الأرض الميتة قرية عامرة بأهلها خضراء بزروعها وأشجارها.

ولما دنا أجل ذلك الرجل الذي أرسله الملك، عيّن له خلفاً ليكون القيّم على أمرها، ولكنّ الناس خالفوا ذلك القيّم الذي عيّنه رسول الملك وغلبوه على أمره وخرّبوا العمران وطمّوا الجداول والسواقي، فماتت الزروع وجفّت الحقول، فلمّا رأى الملك خلافهم على القيّم وخراب أرضه، أرسل إليها رسولاً آخر يحييها من جديد ويصلحها ويعيدها إلى ما كانت عليه في زمن رسوله الأوّل.

وكذلك الأنبياء والرسل يبعثهم الله الواحد بعد الآخر، فيصلح بهم أرضه بعد فسادها ويعمّرها بعد خرابها ويحييها بعد موتها.

قال يوذاسف:

- وهل أنّ دعوة الأنبياء والرسل عامّة للناس أو تخصّ قوماً دون قوم وشعباً دون آخر؟

قال بلوهر:

- إنّ دعوة الأنبياء والرسل عامّة للناس، فمن استجاب لهم وأطاعهم كان منهم، ومن لم يستجب لهم وعصاهم لم يكن منهم، وإنّ الأرض لا تخلو من أن يكون لله فيها نبيّ أو وصي نبيّ.

قال يوذاسف:

- فهل تضرب لي مثلاً على ذلك؟

حكاية الطائر «قرلي»

قال بلوهر الحكيم:

- يا بن الملك؛ إنّ مثل ذلك مثل طائر كان في ساحل البحر يقال له «قرلي»، وهذا الطائر يبيض بيضاً كثيراً، وكان شديد الحب للفراخ وكثرتها، فباض مرّة بيضاً كثيراً، ثمّ إنه حدث أن ثارت العواصف وهاج البحر، فاضطر للهجرة إلى مكان آخر بعد أن تعذّر عليه البقاء، فقام بنقل بيضه الكثير وفرّقه على أعشاش الطيور، فكان يضع البيضة الواحدة أو الاثنتين في هذا العش وذاك، فتحضن الطيور بيضه.

وهاجر الطائر «قرلي» إلى أرض أخرى، وفي أثناء ذلك فقس بيضه في

أعشاش تلك الطيور وألفت فراخها فراخ «قرلي» واستأنست بها.

ثمّ حان موسم العودة، فعاد قرلي إلى أرضه وموطنه ليلاً، فمرّ بأعشاش الطيور وأوكارها، وراح يُسمعها صوته، فاستيقظت فراخه على صوته وتبعته.

وكانت بعض فراخ الطيور التي ألفت فراخ قرلي تتبع فراخ قرلي وتنطلق وراءها، ولشدّة حبّ «قرلي» للفراخ؛ فإنه كان يقبل الفراخ القادمة من سائر الطيور التي استأنست بفراخه وتبعتها.

الأنبياء

سكت الحكيم بلوهر لحظات، ثمّ قال:

- يا بن الملك؛ كذلك الأنبياء؛ فهم يوجّهون دعوتهم إلى الناس جميعاً حبّاً لهم، وإنّما يفعلون ذلك بدافع الحب، فيستجيب لدعوتهم عشاق الحكمة وأهل العقل، لمعرفتهم فضيلة الحكمة.

ومَثل هذا الطائر الذي دعا بصوته ليلاً مثل الأنبياء والرسل، فهم يوجهون دعوتهم ونداءهم إلى الناس جميعاً.

ومَثل البيض المتفرّق في أعشاش الطيور مثل الحكمة، ومثل سائر فراخ الطيور التي ألفت فراخ «قرلي» مثل من استجاب للحكماء قبل قدوم الرسل والأنبياء.

ذلك أنّ الله وهب للأنبياء وللرسل من الفضل والحكمة ما لم يهب لغيرهم من الناس، وأعطاهم من الحجج القاطعة والبراهين الساطعة والنور والضوء ما لم يعط غيرهم؛ من أجل إبلاغ رسالاته.

وكان الأنبياء والرسل القادمون إذا جاءوا نادوا بدعوتهم، فيستجيب لهم من الناس أيضاً ممّن لم يستجب للحكماء.

وذلك لمّا وهب الله دعوتهم من النور والضوء والبرهان.

قال يوذاسف:

- أيّها الحكيم! إنك تقول إنّ ما يأتي به الأنبياء والرسل، ليس من إبداع البشر، وإنه ليس كلام الناس؛ مع إن كلام الله كلام وكلام ملائكة الله كلام أيضاً.

قال بلوهر:

- ألا ترى الناس عندما يتكلّمون مع الحيوانات والطيور الداجنة والمدجّنة، فانّهم لا يتكلّمون معها كما يتحدّثون ويتكلّمون ويتفاهمون فيما بينهم؛ فالناس يخاطبون حيواناتهم وطيورهم بلغة وضعوها وتواضعوا عليها؛ من النقر والصفير والرجز، وبألفاظ رمزيّة لتفهيمها ولمعرفتهم أنها لا تتحمل لغتهم البشريّة، فهم يطلقون بعض الأصوات من صفير وغيره فتُقبل الحيوانات وتُدبر بما فهمته من هذه اللغة.

وكذلك البشر؛ فهم يعجزون عن معرفة كلام الله وكلام الملائكة،على حقيقته وكنهه وكماله ولطفه وجوهره وماهيته، فصار ما تواضع الناس بينهم من الأصوات التي سمعوا بها الحكمة شبيهاً بما وضع الناس للحيوانات والطيور من الصفير والألفاظ الرمزيّة.

ولم يمنع ذلك الصوت مكان الحكمة المودعة في تلك الأصوات من أن تكون واضحة لديهم، قوية مضيئة منيرة شريفة عظيمة، ولم يمنعها من وقوع معانيها على مواقعها وبلوغ ما احتجّ به الله على العباد فيها، فكان الصوت للحكمة جسداً ومسكناً وقالباً، وكانت الحكمة للصوت نفساً وروحاً.

أسرار الحكمة

واعلم يا بن الملك أنّ الناس لا قدرة لديهم للنفوذ إلى أغوار كلام الحكمة وسبرها، ولا يمكنهم أن يحيطوا بها من خلال عقولهم، ومن هنا تفاضل العلماء

في علمهم، ولا يزال عالِم يأخذ علمه من عالم، حتّى يرجع العلم إلى الله الذي هو مصدر العلم.

وكذلك العلماء؛ قد يحصلون من الحكمة والعلم ما ينقذهم من الجهل، ولكن لكلّ ذي فضل فضله، كما أنّ الناس ينالون من ضوء الشمس ما ينتفعون به في حياتهم وأعمالهم وأبدانهم، وهم لا يستطيعون أن ينظروا إليها بأبصارهم، فهي كالعين الغزيرة في تدفق مياهها الظاهرة بنبعها؛ في حين أن منشأها مكنون، فالناس يحيون بما ظهر لهم من مائها ولا يدركون غورها.

وهي كذلك كالنجوم الزاهرة التي يهتدي الناس بها في سفرهم في البراري والبحار وهم لا يعلمون مساقطها.

إنّ الحكمة يا بن الملك أشرف وأرفع وأعظم من هذه التوصيفات؛ فهي مفتاح الباب لكلّ خير يُرتجى والنجاة من كلّ شيء يُتقى، وهي نبع الحياة وعين الحياة التي مَن شرب منها كتب له الخلود الأبدي، وهي الشفاء من كلّ داء، فمن استشفى بها لن يرى الأسقام والأمراض والآلام.

وهي الطريق المستقيم الذي من سلكه لن يضل أبداً ولن يتيه، وهي حبل الله المتين، الذي لا يخلقه طول التكرار وتعاقب الليل والنهار؛ من تمسّك به انجلى عنه العمى، ومن اعتصم به فاز واهتدى؛ هكذا هي الحكمة يا بن الملك!

قال يوذاسف:

- إذا كانت الحكمة كما وصفتها من الشرف والمنزلة والارتفاع والقوّة والكمال والجدوى والبرهان؛ فلماذا لا ينتفع الناس بها جميعاً ولا ينهلوا منها؟!

الشمس للجميع

قال بلوهر الحكيم:

- إنّ مثل الحكمة كمثل الشمس التي تسطع على الناس جميعاً؛ الأبيض والأسود منهم، والصغير والكبير، فمن أراد الانتفاع بها لم تمنعه، ولا فرق لديها القرب والبعد، فهي تغمرهم جميعاً بأنوارها؛ غير أنّ هناك من لا يريد الانتفاع بها والاستضاءة بضوئها والاستنارة بنورها، فلا حجّة له عليها.

إنّ الشمس تشرق على الجميع وليس ثمّة حجاب بينها وبين الناس، وهكذا الحكمة يا بن الملك؛ فهي بين الناس أبداً وقد عمّت الناس جميعاً كضوء الشمس؛ إلا أنّ الناس يتفاضلون في ذلك.

والشمس عندما تشرق على الناس فهم على ثلاثة أنواع وأصناف: صنف صحيح البصر ينفعه الضوء وينتفع به؛ وهو يقوى على النظر والبصر. وصنف أعمى يغمره الضوء ولا ينتفع به؛ بل لو أشرقت عليه آلاف الشموس، فلن يجديه ذلك شيئاً لأنّه أعمى. وصنف في بصره مرض، فهو لا يُعدّ من العميان وأيضاً لا يُعدّ في أصحاب البصر.

كذلك الحكمة يا بن الملك؛ إنها الشمس التي تشرق على القلوب؛ فإذا هي ثلاثة أنواع: قلب شفّاف يمتلئ بالنور ويرى الطريق إلى الحقيقة، فيهفو نحوها. وقلب كالرصاص لا ينفذ فيه ضوؤها تماماً كالأعمى الذي يغمره ضوء الشمس فلا يكشف له الطريق. وقلب ثالث مريض يزيغ عنه الضوء ويستوي لديه الحُسن والقُبح والحق والباطل، وإنّ أكثرية القلوب إنّما هي قلوب عمياء.

قال يوذاسف:

- هل من المحتمل أن يُعرض الرجل عن الحكمة حقبة من الزمن ثمّ يستجيب لها بعد ذلك؟

قال بلوهر:

- نعم؛ هذا ما يفعله أكثر الناس في الحكمة؛ فهي تبقى تطرق أبواب قلوبهم كالدار الموصدة النوافذ والأبواب، وقد يفتح أحدهم نافذة أو باباً فيتسرب النور إلى الداخل.

قال يوذاسف:

- فهل تظن أنّ والدي سمع شيئاً من الحكمة؟

قال بلوهر:

- ربما يكون قد سمع لكنه لم يستمع، أو استمع فلم يصغ ولم ينصت، أو إن أحداً لم يكلّمه أو ينصحه.

قال يوذاسف:

- ولماذا لم يقم الحكماء بهذه المهمّة؛ فلم يكلّموه ولم ينصحوه ويعظوه؟!

قال بلوهر:

- إنّ الحكماء يعرفون مواضع كلامهم، وربما يفعلون ذلك حتّى مع من هو أكثر إنصافاً من والدك وأكثر مرونة وأفضل استماعاً، وقد ترى أحدهم يعاشر إنساناً مدى عمره وبينهما أنس ومودّة ولا يفرّق بينهما شيء إلا الحكمة، وترى صاحب الحكمة منهما في غاية الإشفاق والحب على صديقه؛ يتألّم من أجله ومع ذلك فإنه لا يفضي إليه بأسرار الحكمة، لأنّه لم يره موضعاً لها.

قال يوذاسف:

- فهل لديك مثل على ما قلت وذكرت؟!

حكاية الملك العاقل والوزير الكامل

قال بلوهر الحكيم:

- قيل إنّ ملكاً من الملوك كان عاقلاً قريباً من الناس، عُرف بينهم بالصلاح والإصلاح والعدل والإنصاف، وكان لذلك الملك وزير صالح وأديب عاقل يؤازر الملك في الإصلاح، وكان الملك يستشيره في أُموره فقد عُرف بالحكمة والنزاهة.

ازدرى الدنيا وأعرض عنها، وعشق الدين وأقبل عليه وقد التقى الحكماء والعلماء، فتشرّب العلم ونهل من فيض الحكمة وكان يودّ لقاءهم ويتردّد إليهم.

ولم تكن علاقته بالملك علاقة الوزير بمليكه والمرؤوس برئيسه، وإنّما علاقة الصديق بصديقه، وكان الملك يحبّ وزيره ويبوح له بكلّ أسراره.

وكان الوزير يحبّ الملك كما يحبّ الأخ أخاه والشقيق شقيقه؛ ومع ذلك فإنّ الوزير الذي نهل من الحكمة ما نهل وتشرّب منها ما تشرّب، لم يطلعه على أسرار الحكمة، فقد كان الملك وثنياً يسجد للأوثان والأصنام، أمّا الوزير فقد كان موحّداً يؤمن بربّ الأنام.

وكان الوزير كلّما دخل على الملك سجد للأصنام وتكلّم بشيء من كلام الجهّال وأهل الضلال؛ تقيّة له، ولكنّه يجد فيما يفعله ألماً ويشعر بأنّ نفسه تُظلم كغيوم سوداء تحجب النور عن قلبه، فظل على ذلك فترة من الزمن، ومن شدّة حبّه للملك كان يشفق عليه أيضاً ويتألّم من أجله؛ لأنّه يسجد للأصنام ويمعن في طريق الضلال.

وذات يوم استشار الوزير بعض أصحابه وإخوانه، فقالوا له:

- إذا رأيته موضعاً لكلام فكلّمه وألق إليه الحكمة، وإلا فإنك تعينه

على نفسك وتهيجه على أهل دينك وأصحابك، فانّ الملوك لا تؤمن سطوتهم، فتريث الوزير في أمره وظلّ كسابق عهده يجامل الملك ويداريه ويطيعه ويجاريه على أمل أن يجد فرصة فينصحه أو يجد فيه موضعاً للكلام فيحدّثه.

وكان الملك على وثنيته إنساناً متواضعاً، يحب رعيته وشعبه، مهتم بأُمورهم وإصلاح شؤونهم ورفاهيتهم، وكان الوزير معه دائماً؛ يرافقه ويؤيّده ويقدّم له المشورة في كلّ ما يريد.

وذات ليلة من الليالي قال الملك لوزيره بعدما هدأت العيون:

هيا نخرج إلى المدينة فنسير في شوارعها ونتفقد معابرها وننظر في أحوال الناس وآثار الأمطار فيها!

فقال الوزير: سمعاً وطاعةً للملك.

فركبا فرسيهما وانطلقا يتجولان في أنحاء المدينة، فمرّا بمزبلة تشبه الجبل، وفيما هما ينظران إليها، لاح لهما ضوء ينبعث من نار في ناحية من المزبلة.

فقال الملك للوزير:

- إنّ لهذه النار قصّة ولا شكّ، فلننزل ونتمشى وندنو منها لنعرف خبرها، فنزلا عن فرسيهما واقتربا من تلك النار، فإذا الضوء ينبعث من نقب يشبه الغار، وإذا فيه رجل مسكين، فاقتربا أكثر، فإذا الرجل مشوّه الخلق يرتدي ثياباً ممزّقة وجدها في المزبلة، وهو يتكئ على كيس حشاه من الأقمشة الممزّقة المتهرئة، صنع منه ما يشبه الوسادة وبين يديه إبريق فخاري مكسور من أعلاه فيه شراب وفي يده طبل يضرب به.

وكانت امرأته أكثر دمامة منه؛ ترتدي هي الأخرى ثوباً خَلِقاً من تلك المزبلة، واقفة تسقيه إذا استسقى وترقص له إذا ضرب على الطبل.

وكانت عندما تسقيه تخاطبه وتقول له: لبّيك يا مولاي، سمعاً وطاعة لك يا سيّدي، اشرب هنيئاً وعش سعيداً، أمّا الرجل فكان يتغزّل بجمالها وفتنتها ويخاطبها: اِستقيني يا غادتي! أنت أجمل من رأيت، ارقصي يا فاتنتي.

كان يشرب ويطبل وهي ترقص، وكانا يضحكان معاً ويطربان، وهما في غاية السعادة واللذّة والإعجاب بحلاوة عيشهما وحسنهما وجمالهما.

فراح الملك ينظر إليهما وكذلك الوزير وهما يتعجّبان من التذاذهما بحياتهما وبقيا يتأمّلان الرجل وامرأته هكذا ساعة؛ ثمّ قال الملك:

- لننصرف.

فانصرفا؛ فقال الملك للوزير:

- لا أظنّ انني ولا أنت أيضاً شعرنا يوماً بالسعادة واللذّة،بقدر استمتاع هذا الرجل وامرأته؛ مع أنني واثق أنهما يستمتعان بحياتهما هكذا كلّ ليلة، إنّني أشعر بالدهشة! فهما يعيشان في مزبلة ويرتديان ثياباً متهرئة ممزقة وجداها في النفايات.

وعندما سمع الوزير كلام الملك اغتنم هذه الفرصة، فقال بوقار:

- أخشى أيّها الملك أن تكون دنيانا هذه من ملك وقصور وغرور وما نحن فيه من البهجة والسرور، في أعين من يعرف عالم الملكوت الدائم، مثل هذه المزبلة، فهو ينظر إلينا، كما نظرنا إلى هذين الشخصين، وتكون قصورنا ومساكننا عند من يتطلّع إلى مساكن الخلود والسعادة الأبديّة، في عالم الآخرة، مثل هذا الغار القذر في أعيننا.

وتكون أجسادنا عند من يعرف الطهر والنقاء والـجمال مثل جسد هذا الرجل المشوّه الخلق في أعيننا؛ فهم يتعجّبون منّا كما نتعجّب نحن من هذا الرجل وامرأته، ويكون تعجبهم من إعجابنا بحياتنا كتعجبنا من إعجاب هذين

الشخصين بحياتهما!!

قال الملك كأنّما انتبه من نوم عميق:

- وهل تعرف أناساً ينظرون إلينا كما ننظر نحن إلى هذين الشخصين؟!

قال الوزير بأدب:

- نعم أيّها الملك؛ هم أهل الدين، الذين عرفوا عالم الآخرة ونعيمه فطلبوه؛ فهم ينشدون المُلك هناك.

قال الملك:

- وما هو مُلك الآخرة؟

قال الوزير:

- هو النعيم الذي لا بؤس بعده، والغنى الذي لا فقر بعده، والفرح الذي لا ترح بعده، والسعادة التي لا شقاء بعدها، والصحّة التي لا سقم بعدها، والرضا الذي لا سخط بعده، والأمن الذي لا خوف بعده، والحياة التي لا موت بعدها، والمُلك الذي لا زوال له..

عالم الآخرة أيّها الملك هي ديار البقاء والخلود؛ ديار لا تعرف الزوال وتغيّر الأحوال، رفع الله عن سكانها الأسقام والآلام والشيخوخة والهرم والشقاء والتعب والعناء والجوع والظمأ والموت.

أجل أيّها الملك هذه أوصاف ديار الآخرة وعالم الخلود.

قال الملك:

- وكيف الطريق إلى ذلك العالم وإلى تلك الديار؟ وهل لها طريق يسلكها المرء، فيصل إليها؟ وهل لها أبواب؟!

قال الوزير:

- نعم أيّها الملك؛ إنّ لها طرقاً ممهدة وأبواباً مشرعة، فمن سلك طريقاً من طرقها أوصلته إلى باب من أبوابها، فيدخل مملكة الأبد وعالم الخلد.

قال الملك معاتباً وزيره:

- فلماذا تكتم عنّي هذا السرّ العظيم؟! ولماذا لم تبح لي بذلك قبل الآن؟!

قال الوزير:

- إنّما منعني من ذلك إجلالك والهيبة لسلطانك!

قال الملك:

- إن كان الأمر الذي وصفت يقيناً وهو كذلك؛ لأن قلبي يخبرني بأن ما قلت هو الحق وقلّما يخطئ القلب الحقيقة، فلا ينبغي أن نتهاون في ذلك وأن نضيّع الفرصة، والأحرى بي أن أبادر في البحث عن ذلك العالم الخالد، وسأبذل كلّ ما بوسعي للوصول إليه وألّا أغفل لحظة عن ذلك أبداً.

قال الوزير :

- فهل تأمرني أيّها الملك أن أواظب عليك في ذكره وتكرار أمره؟

قال الملك:

- بل إنّي آمرك أن لا تنقطع عن التكرار في الليل والنهار ولا تدعني أركن إلى الدعة والراحة والاستقرار؛ فإنّ هذا الذي ذكرت أمر لا يجوز التهاون فيه والغفلة عنه.

وهكذا؛ عاش الملك ووزيره حياتهما يسعيان ويعملان، فعمّرا البلاد وساسا بالعدل شؤون العباد واهتدى بهما خلق كثير، وكانت عاقبة أمرهما أن بلغا ديار

الخلد وعيش الأبد.

وسكت بلوهر عن الكلام، وأطرق يوذاسف في احترام، وساد الصمت ما خلا رعود السماء وبروق الفضاء ووشوشة المطر المنهمر.

ثمّ رفع يوذاسف رأسه، فقال:

- إنّ نفسي لمشغولة بما تقول وقلبي يحدّثني بالهروب معك؛ أتبعك أينما تذهب وأرافقك حيثما ترحل، فلنخرج في هذا الليل الدامس ونذهب بعيداً عن هذه الأرض إلى أرض أخرى!

قال بلوهر الحكيم:

- وكيف تستطيع الذهاب معي والصبر على مرافقتي؛ وليس لي مأوى يأويني ولا مركب يحملني ولا أملك ذهباً ولا فضّة ولا أُدّخر غذاء للعشاء، وليس عندي من الثياب إلا ما أرتدي، وليس لي قرار في بلاد؛ فأنا دائم الترحال من مكان إلى مكان؛ فلا أستقر في بلدة إلا قليلاً حتّى أرحل عنها إلى غيرها، ولا أتزوّد في السفر من أرض إلى أرض أخرى رغيفاً واحداً؟!

قال يوذاسف:

- إنني آمل أن يقوّيني الذي قوّاك، وأن يمدّني بالقدرة على مرافقتك، ويهبني الإرادة على السير في طريقك.

قال بلوهر:

- إنّ هذه الشعلة التي تضطرم في داخلك قد تصوغ منك ما صاغت من ذلك الفتى الذي صاهر الفقير؛ لأنّك تأبى إلا أن ترافقني.

قال يوذاسف:

- وكيف كان ذلك أيّها الحكيم؟

حكاية الفتى الغني الذي تزوّج فتاة فقيرة

قال بلوهر:

- قيل إنّ فتى من أولاد الأغنياء الأثرياء أراد أبوه أن يزوّجه، فقال له يوماً: يا بني عليك أن تتزوّج وإنه لا تليق بك إلا ابنة عمّك؛ فإنها غنية ثرية حسناء جميلة، وليس ينبغي لك أن تتزوّج إلا فتاة من طبقتنا وثرائنا، فسكت الفتى احتراماً لأبيه وأطرق برأسه دون جواب، فهو يعرف أن أباه سيرغمه على الزواج منها إنْ صرّح بعدم رضاه بهذا الزواج.

فلمّا حلّ المساء وغمرت ظلمة الليل الأشياء، غادر الفتى بلدته وديارة وانطلق إلى أرض أخرى، فمرّ في طريقه على بيوت الفقراء، فرأى فتاة حسناء ترتدي ثوباً يرتديه الفقراء، وكانت الفتاة واقفة عند باب من تلك البيوت. أعجب الفتى بالفتاة، فقال لها:

- من أنت أيّتها الفتاة؟

قالت:

- أنا ابنة شيخ كبير في هذا البيت.

نادى الفتى :

- يا شيخ! يا شيخ!

فخرج الشيخ مستفسراً، فإذا به يرى فتىً تبدو عليه آثار النعمة والثراء يبادره قائلاً:

- هل تزوجني ابنتك هذه؟

قال الشيخ:

- وكيف تتزوّج من بنات الفقراء وأنت فتى من الأغنياء؟!

قال الفتى:

- إنّني معجب بهذه الفتاة، وما جئت هنا إلاّ هارباً من الزواج من ابنة عمّي، أراد أبي أن يجبرني على الزواج منها، فزوّجني ابنتك فإنك ستجد عندي خيراً كثيراً.

قال الشيخ:

- إنّ نفسي لا تطاوعني على فراق ابنتي إن أردت أخذها إلى أهلك ولا أظن أن أهلك يرضون بها!

قال الفتى:

- إذًا؛ أقيم معكم في منزلكم هذا!

قال الشيخ:

- إن كنت صادقاً، فاخلع زيّك وحليتك والبس زيّنا؛ زيّ الفقراء!

فما كان من الفتى إلا أن خلع حلّة الأغنياء، وأخذ أطماراً رثة من أطمار الفقراء فلبسها ونزل عندهم.

وأقبل الشيخ يحادثه ويسأله عن شأنه، فوجد أنّ له عقلاً راجحاً، وأنّه لم يفعل ما فعل عن نزوة وسفاهة؛ وحينئذ قال له الشيخ :

- إنّ اختيارك لنا ورضاك بنا لم يكن عن نزوة، فانهض معي، فنهض الفتى وأخذه الشيخ إلى باب صغير يفضي إلى نفق يؤدّي إلى فناء واسع وبيت جميل لم ير مثله في سعته وجماله؛ وإذا بالبيت خزائن فيها كلّ ما يحتاج إليه الإنسان في حياته، ثمّ إنّ الشيخ سلّم له مفاتيح الخزائن، وقال له:

- إنّ كلّ ما في الخزائن هو لك تصنع به ما تشاء وما تحب وتريد، فنعم الفتى أنت.

وهكذا تحقّق للفتى ما كان يصبو إليه.

قال يوذاسف:

- إني لآمل أن أكون أنا صاحب هذا المثل؛ إنّ الشيخ اختبر عقل ذلك الفتى حتى وثق به، فاصبر أيّها الحكيم وامتحن عقلي وأعلمني ما عندك في ذلك!

قال بلوهر:

- لو كان الأمر إليّ لاكتفيت منك بأقل ما دار بيننا من كلام، ولكنّي تابع لمنهج وطريق سنّها من هو أعلى منّي في بلوغ الغاية في التوفيق وعلم ما في الصدور، وأخشى إن خالفت السنّة أن أكون قد أحدثت بدعة، وأنا منصرف عنك هذه الليلة، وسأحضر عند بابك في كلّ ليلة، ففكّر في نفسك وتثبّت من كلّ ما يخطر في ذهنك واحذر الأهواء والميول، فإذا واجهتك شبهات، فاسألني عنها، وبعد هذا فكّر في الخروج معي إذا أردت ذلك.

ونهض بلوهر لينصرف ونهض يوذاسف يودّعه.

الليلة الأخرى

عاد بلوهر الحكيم في الليلة التالية ودخل على يوذاسف فحيّاه ودعا له قائلاً:

- أسأل الله الأوّل، الذي لم يكن قبله شيء والآخر، الذي لا يبقى معه شيء، والباقي الذي لا فناء له، والعظيم المطلق، الذي لا نهاية له، والواحد الأحد الفرد الصمد، الذي ليس معه غيره، والقاهر الذي لا

شريك له، والبديع الذي لا خالق معه، والقادر الذي ليس له ضدّ، الصمد الذي ليس له ندّ، والملك الذي ليس معه أحد؛ أن يجعلك ملكاً عادلاً وقائداً إلى التقوى وإماماً للهدى ومبصراً من العمى وزاهداً في الدنيا ومحبّاً لذوي العقل والنهى ومبغضاً لأهل الجهالة والردى؛ حتّى يفضي بنا وبك الطريق إلى ما وعد الله أولياءه على لسان أنبيائه من الجنّة والخلد والنعيم والرضوان.

فإنّ رغبتنا إلى الله ساطعة، ورهبتنا منه باطنة، وعيوننا إليه متطلّعة، ورقابنا له خاضعة، هو المبدأ وإليه المصير.

تأثر يوذاسف بكلمات الدعاء ونفذت في قلبه، فشعر بآلاف القناديل تضيء في أعماقه وكأن نبعاً زلالاً بارداً يتدفّق في حنايا وجوده؛ حتّى إن عينيه اخضلّتا بدمعة رقيقة، وتفجّر في كيانه حبّ الخير والحق والجمال، فقال:

- أيّها الحكيم أعلمني كم عمرك؟

قال بلوهر:

- أربع عشرة سنة.

شعر يوذاسف بالدهشة، وقال:

- ماذا؟! أربع عشرة سنة مع أنك تبدو في الستين!!

قال بلوهر:

- أمّا الميلاد، فقد ناهز الستين سنة؛ لكنّك يا بن الملك سألتني عن العمر، وما العمر إلا الحياة، ولا حياة إلاّ في الدين والعمل به والتخلّي عن الدنيا، ولم يكن هذا إلا منذ أربع عشرة سنة، فأمّا قبل ذلك فقد كنت ميّتاً؛ لذلك لم أحسب تلك السنين من عمري؛ لأنّها من أيّام الموت.

قال يوذاسف:

- كيف تعدّ من يأكل ويشرب ويتحرّك ويمشي ميّتاً؟!

قال بلوهر:

- لأنّه يشترك مع الموتى ويشاركهم في العمى والصمم والبكم وضعف الحياة وقلّة الغنى، وعندما يشاركهم في الأوصاف، فإنّه يوافقهم في الاسم.

قال يوذاسف:

- إذا كنت لا تعدّ حياتك تلك حياة وغبطة، فمن المؤكّد أنك لا تعدّ الموت موتاً ومرارة، أ ليس كذلك؟

قال بلوهر:

- إنّ قدومي من «سرنديب» وعودتي إلى أرض سولابط ولقائي بك يا ابن الملك؛ مع علمي بسطوة أبيك وبطشه وقسوته على أهل ديني، دليل على أني لا أرى الموت موتاً ولا أرى هذه الحياة حياة، وإني لا أتوقّع من الموت مكروهاً.

وكيف يرغب في الحياة من قد ترك متعها وأعرض عن لذائذها الدنيويّة؟! وهل يهرب من الموت من قد أمات نفسه بإرادته؟! أوَ لا ترى يا بن الملك أنّ صاحب الدين قد رفض الدنيا وما فيها وتحمّل عناء العبادة؛ فهو في تعب دائم لا راحة فيه إلا بالموت؟

فما هي حاجة من لا يستمتع بلذائذ الحياة إلى الحياة؟! وكيف يهرب مَن راحته في الموت من الموت؟!

قال يوذاسف:

- صدقت أيّها الحكيم، فهل يسعدك أن تموت غداً؟

قال بلوهر:

- بل يسعدني أن أموت الليلة قبل الغد؛ ذلك أنّ من أدرك القبح والجمال ومن عرف الشرّ والخير وعرف ما عند الله من العقاب والثواب، ترك الشرّ خوفاً من العقاب، والتزم الخير أملاً في الثواب.

ومن بلغ درجة الإيمان وكان موقناً بالله وحده مصدّقاً بوعده، فانّه يحبّ الموت؛ وذلك لما يأمله من حياة بعد الموت، وهي حياة مفعمة بالصفاء والرخاء والسعادة والهناء، وهو يزهد في هذه الحياة خشية على نفسه أن تنحط بالاستغراق في الشهوات والسقوط في الذنوب والآثام، فمن أجل هذا يحب الموت لأنّه قنطرة إلى الحياة.

قال يوذاسف:

- إنّ من يرى الحياة والموت كما تراهما، فليس عجيباً أن يواجه الموت بوجه مشرق وفرح غامر.

وسكت يوذاسف لحظات، ثمّ قال:

- لقد حيّرتني هذه الأمة في سجودها للأصنام وخضوعها للأوثان! فهل عندك أيّها الحكيم مثل لهذه الأمة في عكوفها على الأصنام؟

حكاية الرجل والعصفور

قال بلوهر الحكيم:

- قيل إن رجلاً كان عنده بستان يعمل فيه، تجري جداوله وسواقيه، يشذّب أغصان الأشجار، ويقطف الثمار، ويرعاه ليل نهار.

فرأى ذات يوم عصفوراً ينقر في ثمرة من ثمار الأشجار، فاستاء لذلك وبادر إلى نصب الفخ لاصطياده فصاده.

ولمّا همّ الرجل بذبح العصفور إذا به ينطق ويقول: يا صاحب البستان! لماذا تريد ذبحي وليس فيّ ما يشبعك من جوع ولا يقوّيك من ضعف، وأنا أعرض عليك شيئاً أفضل ممّا تريد.

قال الرجل:

- وما هو ذلك الشيء؟

قال العصفور:

- أعلمك ثلاث حكم تنفعك في حياتك.

قال الرجل:

- حسناً تكلّم.

قال العصفور:

- أطلقني أوّلاً!

قال الرجل:

كلاّ حتّى تخبرني بهذه الحِكم!

قال العصفور:

- احفظ عنّي ما أقول:

لا تأسف على ما فاتك أبداً، ولا تصدّق ما لا يعقل أبداً، ولا تطلب ما لا يطاق أبداً.

فأطلق الرجل العصفور، فطار وحطّ على غصن شجرة، وقال لصاحب البستان:

- أيّها الرجل! لو أنك ذبحتني لاستخرجت من حوصلتي درّة بحجم بيضة الإوزّة ولأصبحت غنيّاً مدى العمر.

فشعر الرجل بالندم الشديد وأسف على إطلاق العصفور، فأراد خداعه لاصطياده مرّة أخرى، فقال له:

- ليس مهمّاً ولكن تعال معي آخذك إلى منزلي فإنّ عندي حَبّاً كثيراً وغذاء وفيراً وماء عذباً زلالاً، فتعيش معي في أمان ورخاء!

قال العصفور:

- أيّها الجاهل أعرف أنك ستغدر بي.

قال الرجل:

- وكيف تعرف ذلك؟!

قال العصفور:

- لأنّك لم تحفظ ما قلت لك أبداً! ألم أقل لك لا تأسف على ما فاتك، وقد أسفت وندمت على إطلاقي، وها أنت تتضرّع وتطلب ما لا يمكن أن يتحقّق، وقد صدّقت أنّ في حوصلتي درّة بحجم بيضة الإوزّة وجسمي كلّه أصغر من بيضة الإوزّة، وقد قلت لك لا تصدّق ما لا يعقل أبداً.

قال يوذاسف:

- ما وجه الشبه بين صاحب البستان وبين هذه الأمة التي تعبد الأوثان؟!

قال بلوهر:

- لأن عبدة الأوثان صنعوا الأصنام بأيديهم ثمّ ادّعوا أنّها هي التي خلقتهم، وهم يحافظون عليها من اللصوص ثمّ ادّعوا أنها هي التي تحفظهم، وهم ينفقون عليها من مكاسبهم وأموالهم لزينتها ثمّ هم يدّعون أنها

هي التي ترزقهم، فطلبوا من ذلك ما لا يدرك، وصدّقوا بما لا يعقل، فكان شأنهم كشأن صاحب البستان.

قال يوذاسف:

- صدقت أيّها الحكيم، فإنّ هذه الأصنام لا شأن لها ولا قيمة ولا جدوى من ورائها.

وكيف أنها تخلق وترزق! وإنّني ومنذ أن وعيت الحياة كنت أزدريها؛ لأنّها جمادات صماء بلهاء، وأنّ عندك ما تدعوني إليه؛ فما الدين الذي تدعوني إليه؟

قال بلوهر:

- إنه أمران فقط؛ معرفة الله والعمل بما يرضاه.

قال يوذاسف:

- وكيف لي بمعرفة الله؟

قال بلوهر:

- أن تعلم أنّ الله واحد ليس له شريك، وأنه لم يزل فرداً ربّاً وما سواه مربوب، وأنه خالق وما سواه مخلوق، وأنه قديم أزلي وما سواه حادث جديد؛ وأنه صانع وما سواه مصنوع، وأنه مدبِّر وما سواه مدبَّر، وأنه باق أبدي وما سواه آيل إلى الفناء، وأنّه عزيز وما سواه ذليل، وأنه لا ينام ولا يغفل ولا يشرب ولا يأكل.

السماوات والأرض في قبضته، والهواء والفضاء والبراري والبحار مسخّرات بأمره، وأنّه كوّن كلّ الأشياء من لا شيء، وخلق الوجود من العدم، وأنه أزلي أبدي لا تبدّله الأزمنة ولا يتغيّر من حال إلى حال، وانّه في كلّ مكان، فلا يخلو منه مكان، وأنّه عالم لا يخفى عليه شيء؛ قادر على كلّ شيء، وأنه الجمال المطلق

والحنان المطلق، وعليك أن تعي أنه يعاقب من البشر العصاة والجبابرة الأشرار، ويسخو بالثواب على الطيّبين الأخيار، فاعمل من أجل تحقيق رضاه واحذر غضبه.

قال يوذاسف:

- وكيف يمكن تحقيق رضا الله؟

قال بلوهر:

- في انتهاج العدل والاستقامة في الطريق، وأن تحبّ لغيرك ما تحبّ لنفسك، وتكره لغيرك ما تكره لنفسك؛ وتتبع رسالات السماء وما جاء به الأنبياء.

قال يوذاسف:

- كيف رفضت الدنيا أيّها الحكيم؟ وحدّثني عن أحوالها!

حقيقة الدنيا

قال بلوهر:

- نظرت إلى هذه الدنيا، فرأيتها أوهاماً ومحض خيال؛ تتغيّر من حال إلى حال، كما لو أنّها أفياء وظلال، وهي بعد ذلك تتحرّك باتّجاه الزوال، ورأيت أهلها كما لو أنّهم أهداف تتّجه إليها السهام والنبال.

تهبّ عليهم رياح الزمن وتعصف بهم عاديات القدر، ورأيت الصحة يعقبها سقم، والشباب يتلوه هرم، والغنى يأتي بعده فقر.

ورأيت الأحزان تعصف بالأفراح، والأعراس تعصف بها المآتم، والخوف يشتت الأمان، والإنسان أسير للمكان والزمان.

ورأيت الأعمار قصاراً وسهام الموت تخطف ليلاً ونهاراً، ورأيت الأبدان تضعف بمرور الأيّام، فهي مستسلمة للأوجاع والآلام والأمراض والأسقام، فعرفت أنّ

الدنيا فانية، وأنّ ساعة كلّ إنسان آتية، فاكتشفت من ظاهرها باطنها وممّا اتّضح لي منها غوامضها، وأدركت أسرارها من خلال علانيتها، فلم أنخدع ببريقها ولين عيشها؛ لأنّها كالأفعى ليّن مسّها وفي لدغتها السمّ القاتل، فكنت منها على حذر، وفررت منها لمّا أبصرتها على حقيقتها؛ لأنّ من طبيعتها الغدر.

أذكر أني رأيت شابّاً في عنفوان الشباب، كان سعيداً بشبابه يعيش في قصر منيف وجاه عريض، ذهب يوماً في رحلة للاصطياد، وكان القدر له بالمرصاد؛ إذ كبا به الجواد، فإذا هو مشلول لا يقدر على الحراك، فانقلب عليه الزمان؛ وخذله رفاقه والإخوان، وتنكّرت له الدنيا، فإذا سعادته شقاء، وإذا بالأفراح أتراح.

ولم يزل حاله يتغيّر إلى أسوأ حال حتّى فارق الحياة، فألقته الدنيا في حفرة ضيّقة موحشة وحيداً فريداً، قد فارق الأحباب؛ وذهب دون إياب؛ وأسدلت عليه ستائر الغياب وهوى في وادي النسيان، فكأنّه لم يكن في الدنيا ولم يعش فيها ساعة، ولم يكن له فيها جاه وثراء وقصر وحدائق غنّاء.

فحذار حذار يا بن الملك أن تتّخذ من هذه الدنيا دار القرار ويكون لك فيها قصر وعقار فأفٍّ لها من دار.

قال يوذاسف وقد تأثّر حتّى تألقت عيناه بالدموع كغيوم ممطرة:

- أجل أفٍّ لها من دار، زدني أيّها الحكيم فأنّي أشعر بالنور يسطع على قلبي ويشرق في روحي.

قال بلوهر:

- إنّ العمر قصير جدّاً، وها أنت ترى يا بن الملك، كيف يتسابق الليل والنهار، يمضي النهار ويتلوه الليل، ثمّ يشرق النهار بعد ذلك وهكذا، ومعنى هذا أنّ الرحيل وشيك، ومهما طال عمر الإنسان، فإنّ نهايته قادمة لا محالة.

وكلّ إنسان يتّجه نحو القبر، اليوم فوق الأرض وغداً تحت الأرض، ثمّ يبقى اسمه منقوشاً على شاهدة القبر وفي ذاكرة ذويه، ثمّ تهب الرياح فتندرس النقوش ويمرّ الزمان ويكون مصير الذكريات إلى وادي النسيان، فيتبدد كلّ ما جمع وحشد، ويصبح خراباً كلّ ما بنى وشيّد، ويصير اسمه مجهولاً وذكره نسياً منسيّاً وجسده بالياً وتندثر آثاره ويتبدّد ما له ويفرح عدوّه.

أجل؛ هكذا تفعل الدنيا، فهو بالأمس أو اليوم يملأ الدنيا ضجيجاً، وإذا هو اليوم أو غداً جثّة هامدة ساكنة بلا حراك، يخرج من الدنيا عارياً، كما جاء عارياً، فيدلّى في حفرة ظلماء وحيداً غريباً، فلا خلاّن ولا رفاق ولا أصدقاء، قد فارق الجميع وودّع الأحباب والديار والربوع.

من أجل هذا يا بن الملك؛ ينبغي للعاقل اللبيب أن ينظر إلى كيانه كما ينظر الحاكم إلى بلاده، فأنّ الحاكم العادل الحازم؛ هو من ينتهج سياسة الإصلاح مع الناس؛ يأمرهم بكلّ ما هو مفيد، وينهاهم عن كلّ ما هو ضار، فتراه يعاقب مَن عصاه ويكرم من أطاعه.

وكذلك الرجل العاقل؛ فإنه يؤدّب نفسه في جميع نزعاتها وقواها وميولها وأهوائها وشهواتها، يأمرها بكلّ ما هو صالح وحَسن ومفيد، وينهاها عن كلّ ما هو سيئ وقبيح وضار.

وأنت ترى الإنسان يفرح أنه قام بعمل نبيل، ويحزن إذا ارتكب عملاً دنيئاً، فهو يشعر بالندم على ما فعل، فعقله كان قد نهاه عن فعل القبيح من الأعمال، ولكنّ هواه كان يأمره، فلمّا عصى العقلَ وأطاع الهوى، عرف من لوم الوجدان أنه قد أخطأ فحزن وندم.

قال يوذاسف :

- أيّها الحكيم أوضح لي كيف يكون ذلك؟

الحرب الكبرى

قال بلوهر:

- إنّ قلوب البشر ثلاثة أنواع: قلب مفعم بالإيمان، طاهر من الرذائل، تنقدح فيه خواطر الخير من وراء الغيب، فيتحرّك العقل لمعرفة دقائق الخير في تلك الخواطر؛ فتنكشف الأسرار ويضيء القلب بنور السماوات وتحصل الطمأنينة والسكينة والسلام.

وقلب مشحون بالأهواء مثقل بالرذائل مشرّع النوافذ على وساوس الشيطان، مسدود على إلهام الملاك، تحدث فيه خواطر الهوى فيستفتي العقل؛ غير أنّ العقل قد اعتاد الأسر والخضوع للأهواء، فيقدّم العقل الأسير الخطط التي تكفل تحقيق خواطر الهوى، ويتصاعد دخان الأهواء، فيحجب بصيص الضوء المتبقي من شعلة الإيمان والفطرة، ويتحقّق فعل الشر.

وقلب تنقدح فيه خواطر الهوى، تدعو إلى الشر تلحقه خواطر الإيمان تدعو إلى الخير، فتنبعث الغرائز لمعاضدة خاطر الشر وتصوّر له من خلال قوّة الخيال لذّة الاستمتاع.

وهنا ينبعث العقل لمساندة خاطر الخير مقبّحاً فعل الغريزة متّهماً ايّاها بالجهل ومشبّهاً لها بالبهيمة في تهافتها على الشر وعدم اكتراثها بالعاقبة.

حينئذ تميل النفس إلى صوت العقل، وهنا يشنّ الشيطان هجومه على العقل مسانداً موقف الأهواء، فيوسوس قائلاً: لماذا هذا التردّد؟ لماذا هذا التحرّج البارد؟

لماذا تعذب نفسك؟ هل هناك من رفض الاستجابة لنداء الغريزة؟ لماذا ترفض الاستمتاع؟ لماذا الحرمان والشقاء؟!

انظر إلى فلان وفلان وإلى هذا وذاك كيف يستمتعون!

هنالك تميل النفس إلى صوت الشيطان، فيتدخّل الملاك مهاجماً الشيطان قائلاً:

- إنّ الهلاك يكمن في التهافت على اللذّة العابرة من دون التفكير في عواقب الأمور، ثمّ يوحي إلى الإنسان: لماذا تقنع بلذّة عابرة يسيرة وتترك لذائذ النعيم الخالد في جنّات الفردوس؟ لماذا التململ من آلام الصبر والحرمان الموقت؟ فكيف صبرك غداً أمام آلام الجحيم والعذاب الأبدي!!

ثمّ يضرب مثلاً له: إذا كان لديك ظلّ بارد في فصل الصيف، ورأيت الناس جميعاً واقفين في حرّ الشمس؛ فهل تقف معهم أو أنك تطلب الخلاص لنفسك؟! لماذا تخالف الناس في حرّ الشمس ولا تخالفهم في حرّ الجحيم؟!

وهنا تميل النفس إلى صوت الملاك، ويصبح القلب محل تجاذبات بين الصوتين، ثمّ يكون النصر للأقوى من خلال الاستقواء بالصفات، فإذا كانت الرذائل في القلب أقوى من الفضائل، كانت الجولة للشيطان، وإن كانت الفضائل أقوى، كان النصر للملاك والخير والحق والجمال.

قال يوذاسف:

- صدقت أيّها الحكيم زدني!

القيم الخالدة

قال بلوهر:

- إنّ الله قد وهبك نعمة العقل وهو كالفانوس يضيء لك الطريق في ظلمات الجهل، فاعرض عليه ما يرد عليك، لتأخذ بالصواب وتجتنب الخطأ.

وحذار أن تعجب بنفسك وتعشق ذاتك؛ فلا ترى غيرك، واعلم أنه بالعقل

يُدرك الخير، وبالجهل فناء النفوس.

واعلم يا بن الملك؛ أنّ الشيطان عدوّ الإنسان، وأنه كائن ظلماني، فمن أجل هذا يخشى العقل؛ لأن العقل سراج ومصباح مضيء، فإيّاك أن تصغي للشيطان، فإن سلاحه الأوّل إنكار العقل، فإيّاك أن تنكر العقل وحذار أن يقع في أسر الأهواء، فانّ العقل الأسير خطر كبير، واعلم أنّ الله لم يخلق شيئاً أعظم من العقل.

قال يوذاسف:

- صف لي الله كما لو أنّي أراه!

قال بلوهر:

- إنّ الله ليس شيئاً ماديّاً حتّى يمكن وصفه؛ فلا الأبصار يمكنها رؤيته، ولا حتّى العقول بإمكانها التوصّل إلى ماهيته، إنه أسمى وأعلى من الأوصاف؛ ومع ذلك فإنه لا يخفى على العاقل وجوده وأتاح للإنسان معرفته.

قال يوذاسف:

- وما الدليل في ذلك؟

قال بلوهر:

- الدليل أنك إذا رأيت شيئاً مصنوعاً ولم تر صانعه، أدركت بعقلك أنّ له صانعاً، فكذلك السماء والأرض، وما في السماء من كواكب وأقمار، وما في الأرض من أنهار وبحار وزروع وأشجار، فأي دليل أقوى من هذا الدليل؟!

قال يوذاسف:

- فأخبرني أيّها الحكيم عن أحوال الناس وأعمالهم؛ هل هي بقدر من

الله أو بغير قدر؛ هذا صحيح وهذا سقيم، وهذا غني وهذا فقير، وهذا محسن وهذا مسيء؟

قال بلوهر:

- نعم؛ كلّ شيء بقدر.

قال يوذاسف:

- فأخبرني أيّها الحكيم عن أعمال البشر السيّئة.

قال بلوهر:

- إنّ الله خلق الإنسان ووهبه الحريّة والإرادة وحمّله المسؤوليّة، وأعطاه العقل؛ فالعقل سراج وزيته الرسالات الإلهيّة، فوعد الله المحسنَ بالنعيم الأبدي والخلود في الفردوس، وتوعّد المسيء بالشقاء في الجحيم.

قال يوذاسف:

- فأخبرني أيّها الحكيم من هو أعدل الناس ومن هو أجورهم؛ ومن أعقلهم ومن أحمقهم؛ ومن أشقاهم ومن أسعدهم؟

قال بلوهر :

- إنّ أعدل الناس أنصفهم من نفسه، وإنّ أجورهم من كان جوره وظلمه لديه عدلاً وعدل أهل العدل عنده ظلماً وجوراً. وأما أعقل الناس فهو الذي يتزوّد للرحيل إلى عالم الخلود، وإنّ أحمق الناس وأغباهم من كانت الدنيا كلّ همّه والخطايا عمله. وإنّ أسعد الناس من اختتم حياته بعمل الخير، وإنّ أشقى الناس من ختم حياته بالشرّ.

واعلم أنّ الحُسن له معيار والقُبح له معيار، فلا تقبح الحَسن وإن كان من الفجّار، ولا تستحسن القبيح وإن كان من الأبرار.

قال يوذاسف:

- أيّ الناس أجدر بالسعادة؟ وأيّهم أولى بالشقاء؟

قال بلوهر:

- إنّ أجدر الناس بالسعادة الذي يطيع أمر الله ويجتنب ما نهى عنه، وإنّ أولى الناس بالشقاء الذي يعصي الله ويؤثر على الطاعة هواه.

قال يوذاسف:

- أيّ الناس أكثر طاعة لله؟

قال بلوهر:

- الأكثر اتباعاً لأمـره، والأقـوى على انتهاج شريعته، والأكثر بعداً عن السيّئات.

قال يوذاسف:

- ما هي الحسنات؟ وما هي السيّئات؟

قال بلوهر:

- الحسنات صدق النيّة والقول الطيّب والعمل الصالح، والسيّئات سوء النيّة وسوء العمل والقول السيّئ.

قال يوذاسف:

- فما صدق النيّة؟

قال بلوهر:

- الاعتدال في الهمّة.

قال يوذاسف:

- فما سوء القول؟

قال بلوهر:

- الكذب

قال يوذاسف:

- فما سوء العمل؟

قال بلوهر:

- معصية الله.

قال يوذاسف:

- فأخبرني عن الاعتدال في الهمّة؟

قال بلوهر:

- أن تتذكّر دائماً أنّ الدنيا إلى زوال وفناء، وأن تتجنّب كلّ عمل يفضي بك إلى الشقاء في عالم البقاء.

قال يوذاسف:

- أخبرني عن السخاء ما هو؟

قال بلوهر:

- أن تهب المال من أجل الله.

قال يوذاسف:

- وما البخل أيّها الحكيم؟

قال بلوهر:

- منع الحقوق عن أهلها ومستحقيها.

قال يوذاسف:

- فما الحرص؟

قال بلوهر:

- هو الإخلاد إلى الدنيا وطموح المرء إلى ما فيه دماره في مستقبله الحقيقي في عالم البقاء.

قال يوذاسف:

- فما الصدق؟

قال بلوهر:

- ألّا يخدع المرء نفسه ويكذب عليها.

قال يوذاسف:

- فما الحمق؟

قال بلوهر:

- أن يصدّق الإنسان بالدنيا ويثق بها ويطمئن إليها والإعراض عن عالم البقاء من أجلها.

قال يوذاسف:

- فما الكذب؟

قال بلوهر:

- الانخداع بالأهواء واللهاث وراءها.

قال يوذاسف:

- أيّ رجل هو الأكمل في الصلاح؟

قال بلوهر:

- الأكمل في العقل، والأكثر تبصّراً بالنهاية، والأكثر معرفة بخصومه، والأشدّ حذراً منهم.

قال يوذاسف:

- أخبرني أيّها الحكيم عن هذه النهاية وعن الخصوم!

قال بلوهر:

- النهاية هي عالم الخلود والبقاء، والخصوم الحرص والغضب والحسد والتعصّب والشهوة والرياء والعناد.

قال يوذاسف:

- وأيّ الخصوم هؤلاء أقوى؟

قال بلوهر:

- الحرص؛ لأنّه الأقل رضا والأفحش غضباً، والغضب أَجوَر سلطاناً وأقلّ شكراً، والحسد أسوأ الخيبة للنية وأخلف للظن، والعصبية أشدّ وأفظع معصية، والحقد أطول توقّداً وأقلّ رحمة وأشدّ سطوة، والرياء أشدّ خديعة وأكذب، والعناد أعجز خصومة وأقطع معذرة.

قال يوذاسف:

- أيّ مؤامرات الشيطان أقوى حبكة؟

قال بلوهر:

- ذرّ التراب في عيونهم؛ حتّى يعمى عليهم التميز بين الخير والشر وعدم التفكير بالنتائج بعد ارتكاب الآثام.

قال يوذاسف:

- ماذا وهب الله الإنسان لكي يقاوم في منزلقات الغريزة والسقوط في الهاوية.

قال بلوهر:

- العلم والعقل والإرادة والضمير؛ فبالعقل يدرك فناء الدنيا وحتمية الموت، والتفكير بعالم ما بعد الرحيل، وردع النفس عن العادات السيّئة، والتمرين على العادة الحسنة والأخلاق النبيلة، واستكشاف الطريق الذي يفضي إلى النهاية السعيدة والسيطرة على الأهواء وجعلها تحت قيادة العقل.

قال يوذاسف:

- أيّ الصفات الأخلاقية أكرم وأرقى؟

قال بلوهر:

- التواضع والتعامل مع الآخرين بمرونة وخلق.

قال يوذاسف:

- أيّ العبادات أجمل؟

قال بلوهر:

- الوقار والمودّة.

قال يوذاسف:

- أيّ الشيم أفضل؟

قال بلوهر:

- حبّ الناس الطيّبين الصالحين.

قال يوذاسف:

- أخبرني أيّ الفضائل أفضل؟

قال بلوهر:

- القناعة والرضا بالكفاف.

قال يوذاسف:

- أيّ الأشياء أكثر جفاءً؟

قال بلوهر:

- الحاكم الطاغية والقلب القاسي.

قال يوذاسف:

- أيّ الأشياء أبعد غاية؟

قال بلوهر:

- عين الجَشِع الحريص التي لا تشبع من الدنيا.

قال يوذاسف:

- أيّ الأمور أسوأ نهاية؟

قال بلوهر:

- محاولة تحقيق رضا الناس في غضب الرب.

قال يوذاسف:

- أيّ الأشياء أسرع تقلباً؟

قال بلوهر:

- قلوب الملوك الذين يعملون من أجل الدنيا.

قال يوذاسف:

- أيّ الأشياء أسرع في الانقطاع؟

قال بلوهر:

- صداقة الإنسان المتمرّد على قانون السماء.

قال يوذاسف:

- أيّ الأشياء أكثر خيانة؟

قال بلوهر:

- لسان الكاذب.

قال يوذاسف:

- أيّ الأشياء هي الأصعب اكتشافاً؟

قال بلوهر:

- الشرّ الذي يضمره المرائي المخادع.

قال يوذاسف:

- أيّ الأشياء هي الأكثر شبهاً بأحوال الدنيا؟

قال بلوهر:

- أحلام النائم.

قال يوذاسف:

- أيّ الناس هو الأكثر رضىً؟

قال بلوهر:

- الأحسن ظنّاً بالله والأتقى وأقل غفلة عن ذكر الله وتذكّر الموت وزوال الدنيا.

قال يوذاسف:

- أيّ الأشياء في الدنيا أكثر إسعاداً للرجل؟

قال بلوهر:

- الابن المهذّب والزوجة الموافقة التي ترافق زوجها في الطريق إلى عالم الخلود.

قال يوذاسف:

- أيّ الأمور أكثر إيلاماً لقلب الرجل؟

قال بلوهر:

- الأسرة المتمرّدة من أبناء وزوجة لا تعرف الصواب ولا تقبل الإرشاد.

هموم يوذاسف

وساد الصمت، فلا يوذاسف يسأل، ولا بلوهر يجيب أو يبتدئ الحديث، وقد غمرت سكينة الليل جميع الأشياء وألقت عليها غلالة من الأسرار، وكانت السماء صافية بعد أمطار الليلة الفائتة؛ ما خلا قطع صغيرة من الغيوم بدت كسفن مبحرة.

نظر الحكيم إلى وجه يوذاسف، فأدرك من خلال نظرات عينيه أنّ النور قد أشرق على قلب يوذاسف وأضاءت روحه، ثمّ لمح غمامة من الحزن تطوف على جبهته، فقال:

- يا بن الملك؛ أرى في وجهك ملامح همّ، فإن كان لديك سؤال فاسأل!

قال يوذاسف:

- نعم؛ إنّ لدي سؤال عن أهمّ الأشياء لدي، ولقد أشرق النور على فؤادي وأضاء لي طريقي في الحياة، وعاد إليّ الأمل بعد اليأس من النجاة، ولكن ما رأيك في ملك ورث المُلك فتىً، فنشأ على عبادة الأوثان، وانتهل من لذّات الدنيا، واستمتع بالشهوات، وظلّ على هذا المنوال، حتّى أصبح رجلاً وكهلاً لا همّ له سوى إشباع غرائزه وميوله والاستجابة لأهواء نفسه، لا يعرف الله ولا تزيده الأيّام إلّا إمعاناً في الملذّات.

قد تزيّنت له الشهوات فهو مستغرق فيها، فهو لا يعرف إلا هذه الدنيا جاهلاً بالحياة الأخرى؛ حتّى قسى قلبه واستسخف من آمن بأن الله ربّه، واشتدّت عداوته لأهل الدين، فطاردهم في كلّ مكان ونكّل بهم ونفى كثيراً منهم؛ فهل ثمّة أمل بهدايته؟ وهل هناك فرصة لعودته؟ وهل تُقبل توبته؟

قال بلوهر:

- أعرف من تقصد بهذه الأوصاف، وأعرف بواعث سؤالك.

أطرق يوذاسف، فقال بلوهر:

- إنّ هذا ليس بمستنكر ممّن أوتي عقلاً وعلماً كعقلك وعلمك، واعلم يا بن الملك؛ أنّ صاحب هذه الأوصاف هو والدك؛ ملك سولابط، وأنّ الدافع للسؤال هو حبّك إيّاه وإشفاقك عليه من النهاية التي ينتهي إليها والمصير الذي ينتظره، واعلم انّ للوالد على ولده حقوقاً وأنك قد

نويت أن تؤدّي ما أوجب الله عليك من حقوق أبويك، وأنك تريد بلوغ غاية العذر في العمل على إنقاذه من مصير عظيم الهول دائم البلاء في عالم أبدي الشقاء إلى عالم دائم السلامة والبقاء وسعادة الأبد في ملكوت السماء.

قال يوذاسف:

- صدقت أيّها الحكيم، هذا ما أردت، فأعطني رأيك فيما طلبت من أمر الملك وحاله، فإني أخشى أن تأتيه ساعة الموت، وحينئذ تحلّ به حسرة الأبد ولوعة الندم، فلا أستطيع أن أدفع عنه سوء المصير، وها أنا أقف عاجزاً مهموماً أفكر في مصير أبي ووالدي.

قال بلوهر:

- اعلم يا بن الملك؛ أني من قوم لا يُخرجون أحداً من رحمة الله الذي وهب الروح؛ فنحن نشعر بالأمل مادامت فيه الروح وإن أصبح طاغية وضلَّ عن الطريق؛ لأن الله ربنا هو مصدر الحنان والرحمة والإحسان، وإنّ باب العودة إليه مفتوح، ومن أجل هذا ينادي الإنسانَ في كلّ زمان ومكان أن يعود إلى خالقه ومبدأ وجوده، وأنا أقصّ عليك قصّة قديمة.

حكاية الملك الجبّار

قال بلوهر يقصّ على يوذاسف:

- قيل إنه كان في زمن من الأزمان، ملك عظيم الصيت في العلم رحيم في سياسته شفيق يحبّ العدل في أُمّته وينتهج الإصلاح لرعيّته ومواطنيه، عاش زماناً بخير حال والأمة في رفاه ورخاء، ثمّ توفي ذلك الملك فحزنت عليه أُمّته، وكانت امرأته حاملاً، فذكر المنجّمون

والكهنة والعرّافون أنها ستلد صبياً.

وكان الوزير قد تولّى شؤون المملكة يدبّر شؤونها ويسوس أهلها وأنجبت زوجة الملك صبياً، واحتفلت الأمة بميلاده احتفالاً كبيراً، فعزفت الألحان وصدحت الموسيقى في كلّ مكان، وغـنّى المطربون والمطربات ووزعت المسكرات، فكان الناس يشربون ويأكلون ويلهون ويمرحون مدّة أيّام وأسابيع وشهور حتّى أتمّوا السنة وأكملوا العام.

ثمّ إنّ أهل العلم والربانيّين قالوا لعامّة الناس إنّ هذا الصبي إنّما هو هبة الله وقد جعلتم الشكر لغيره، وإن كان هبة من غير الله فقد أدّيتم الشكر إلى من وهبكم إياه وبذلتم الجهد في إرضائه.

فقالت عامّة الناس: ما وهبه لنا إلاّ الله ولا امتنّ به علينا غيره.

فقال الحكماء:

- إن كان الله هو الذي وهبه لكم فقد أرضيتم غيره وأسخطتم الله الذي وهبه لكم.

فقال الناس:

- إذاً؛ أشيروا علينا أيّها الحكماء وأخبرونا، فنحن نسمع ونطيع ونتبع ما تأمرون.

قال الحكماء:

- إننا نشير عليكم التوقف عن إرضاء الشيطان بتعطيل وإيقاف الموسيقى الماجنة والملاهي والتوقّف عن تناول المسكرات، ثمّ تتّجهوا إلى مرضاة الله بالشكر على ما وهب وأعطى وأنعم، وأن تبذلوا أضعاف ما بذلتم من اللهو بالابتهال إلى الله يغفر لكم ويتوب عليكم، فهيا إلى الصلاة والصيام والعبادة ومساعدة البؤساء والفقراء! والإنفاق على

المحتاجين! والشكر على ما أنعم عليكم ورزقكم وأن يكون شكركم لله أضعاف شكركم للشيطان!

قال الناس:

- أيّها الحكماء! إنّ أجسادنا لا تتحمّل الذي قلتم وأمرتم.

قال الحكماء:

- يا أولي الجهل! كيف أطعتم من لا حقّ له عليكم وتعصون من له الحقّ الواجب عليكم؟! وكيف استطعتم وقويتم على ما لا ينبغي وتضعفون عمّا ينبغي؟!

قال الناس:

- أيّها الحكماء العلماء؛ إنّ الشهوات استشرت فينا، واللذات كثرت فقوينا بها، فإنّ العزف والغناء والسكر والرقص والانتشاء قد اجتذَبنا، والأهواء إلى ذلك دفعتنا فقوينا، وأما ما ذكرتم وأشرتم، فهو ثقيل علينا لضعف إرادتنا، فارضوا منا بالعودة والإنابة والرجوع عمّا سلف منا شيئاً فشيئاً ويوماً فيوماً ولا تحمّلونا ما لا طاقة لنا به.

قال الحكماء:

- يا معشر السفهاء! إنكم أبناء الجهل وإخوان الضلال، أ تستخفّون الشقاء وتستقلون السعادة؟!

قال عامّة الناس:

- أيّها السادة الحكماء والقادة العلماء؛ إنّا نستجير من تعنيفكم إيّانا، بغفران الله، ونستتر من تعييركم لنا بعفوه، فلا تؤنبونا ولا تعيّرونا بضعفنا وجهلنا، إنّنا نأمل أن يعفو الله عنّا إذا أطعناه وندمنا على ما قد

سلف منا؛ فإنّ الله هو مصدر الرحمة والحنان والرأفة والإحسان.

فأيّد الحكماء قولهم، فصلّى الناس وصاموا ودعوا الله بالمغفرة وأنفقوا من الأموال الكثير على كلّ بائس وفقير، وظلّوا في عبادتهم من صلاة وصيام مدّة عام، فلمّا انقضى العام قالت الكهنة:

- إنّ الذي صنعته هذه الأمة على هذا المولود يخبر أنّ هذا الملك يكون طاغية جبّاراً ويكون متواضعاً بارّاً ويكون مسيئاً ويكون محسناً.

وقال المنجّمون مثل ما قال الكهنة، فقيل: ما هذا الكلام؟!

قال الكهنة:

- لأنّنا رأينا كثرة العزف والغناء والملاهي والسكر والانتشاء حتّى تمّ عام كامل، ثمّ أعقب ذلك انصراف الأمة إلى الدعاء والصوم والصلاة والثناء ولمدّة عام كامل أيضاً، فهذا انتقال إلى الضد!!

وقال المنجّمون:

- لأنّنا رأينا استقامة الزُّهرة والمشتري.

وكبر الصبي ونما وترعرع ونشأ، فلمّا شبّ وبلغ؛ إذا هو متكبّر مغرور حتّى إذا جلس على العرش جار في حكمه وظلم، واعتدى على أهل مملكته، وكان عدوانه لا يطاق.

وتعسّف في الحكم، فقهر العباد وخضعت له البلاد، وكان أقرب الناس إليه من يؤيّده، وأبعد الناس عنه وأبغضهم لديه من يخالفه، فالتفّ حوله المتملّقون والمنافقون، وفرّ وابتعد عنه المخلصون والصادقون.

وكان هذا الملك الشاب مستغرقاً في السكر، فقد اجتمع عليه سكر الشباب في قوّته وعنفوانه؛ يأكل ما لذ وطاب ويمرح ويلعب مختلف الألعاب، وسكر

الثروة والمال؛ فإنّ للثراء تأثير الخمر، فهو يسكر الإنسان، وسكر الحكم؛ فإنّ للسلطة والنفوذ تأثير الخمرة المعتّقة.

فرأى من خضوع الناس وذلّتهم بين يديه وركوعهم وسجودهم له ما قضى على عقله ومركز التفكير المنطقي لديه، فامتلأ إعجاباً بنفسه، وكان لا يرى إلاّ ما يعجبه، ولا يسمع إلا ما يحبّه، وظل على هذا الحال حتّى بلغ الثانية والثلاثين من عمره.

وكان الملك الشاب قد تزوّج العديد من بنات الملوك وبنى الكثير من القصور وملأها بالجواري والغلمان؛ وكان إسطبله مليئاً بالخيل المطهّمات المزيّنات بالسروج المذهّبة.

وذات يوم، أمر الملك الشاب أن ينصبوا عرشه فوق منصّة في طول عشرين ذراعاً وعرض ستّين ذراعاً، وأن تكون أرضية المنصّة مبلطة بصفائح الذهب الخالص، وأن تسقف وتحيطها ثلاثة جدران، وتكون مفتوحة مقابل مطلع الشمس عند شاطئ النهر الأخضر.

وتمّ للملك ما أراد، واستخرجت كنوز الأموال من خزائنه ووضعت على جانبي الطريق المؤدية إلى تلك المنصّة، واصطف الحراس في صفّين متقابلين.

وجاء موكب الملك المغرور ووزراؤه وأركان دولته وقادته وخدمه ونساؤه وجواريه وغلمانه؛ وكان الملك محمولاً على محفة من خشب الأبنوس المرصّع بالجواهر واللؤلؤ.

فصعدوا به إلى المنصّة وجلس على عرشه وقد أشرقت الشمس، فانعكست أشعّتها الذهبيّة على صفائح الذهب، فتشعشعت الأضواء وتكسرت الأنوار، وخطفت العقول والأبصار.

فلمّا استوى الملك جالساً على عرشه، سجد له أهل مملكته وأركان دولته،

وراح الملك يتأمّل فيهم ويمعن النظر إليهم، فرأى وجوهاً جميلة مشرقة، ورأى جميع الأزياء الملوّنة بمختلف الألوان، ورأى وجوهاً تطفح بالسرور وفتيات كأنهنّ البدور.

فامتلأ قلبه فرحاً حتّى بانت الفرحة في عينيه؛ فقال في نفسه: لقد رأيت جميع الوجوه إلا وجهي، فأمر بإحضار مرآة يرى فيها وجهه.

فجاءت فتاة وفتى يحملان مرآة فضيّة الإطار برّاقة مصقولة الزجاج، فراح الملك ينظر فيها إلى نفسه؛ وفبينما هو يقلّب النظر في وجهه، لاحت له شعرة بيضاء في لحيته كخيط قطني وسط الفحم، أو كغراب أبيض بين غربان سود.

ففزع وذعر من رؤيتها، وتبدّد السرور والفرح، وظهرت على محياه ملامح الترح؛ فإذا هو حزين كئيب، مغموم مهموم، وإذا وجهه الذي كان يموج بإشراقة الربيع قد أضحى حديقة في منتصف الشتاء!

قال في نفسه: هذا جرس يؤذن برحيل الشباب، وأنّ ملكي قد آل إلى الزوال والذهاب، قد آن لي أن أنزل من على عرش الحكم والسناء بعد أن طرقني رسول الموت والبلاء، لم يحجبه عنّي حاجب ولم يمنعه عنّي حارس.

وها هو ينعى إليّ نفسي ويؤذنني بزوال مجدي، وسرعان ما تبدل حالي واستحالت بهجتي وسروري إلى هموم وأحزان.

آه ما أضعف الإنسان! أين قلاعي وحصوني وجيوشي وجنودي؟ هذا سالب القوّة والشباب ومبدّد الثروة ومفرّق الأحباب.

هذا منغّص الحياة، وماحق اللذات، ومفرّق الجماعات، هذا مشتت الجموع، ومطفئ الشموع، ومفجّر ينابيع الدموع، هذا الذي ينزل من عليائه الرفيع، ويذلّ العزيز المنيع.

ثمّ إنّ الملك الشاب نزل من فوق عرشه حافياً مطرقاً رأسه كإنسان يقاد إلى

رمسه، كأنّه ليس ذلك الشاب الذي رفع إلى عرشه محمولاً ينظر شامخاً ويمشي متكبّراً منتفخاً.

جمع جنوده وأركان دولته، وقال:

- كيف سيرتي فيكم وحكمي عليكم؟

قالوا بصوت واحد:

- أيّها الملك العظيم! عظم مجدك وعلا شأنك، أنت فينا محمود عزيز، ونحن جميعاً رهن إشارتك؛ تأمرنا فنطيع.

قال الملك:

- لقد جاءني عدو نحيف لم تمنعوني منه حتّى نزل بي وأنتم جنودي وحرّاسي.

قالوا:

- وأين هذا العدو، وكيف لم نره، إن كان يُرى بالأبصار؟!

قال:

- إنما يرى بمشاهدة الآثار لا بالعيان والأبصار.

قالوا:

- هذه قوّاتنا وعدّتنا وإمكاناتنا في خدمتك، ونحن رهن إشارتك؛ فدلّنا عليه نقاتله وننازله.

قال الملك:

- لقد خدعت نفسي بكم، ووضعت ثقتي في غير محلّها بعد أن وثقت بكم، وقد أنفقت عليكم الأموال وبنيتم لي الحصون والقلاع، كلّ هذا

من أجل حمايتي والدفاع عنّي، وإذا بالعدو يدهمني وأنتم ملتفّون حولي.

قالوا:

- إن كان هذا العدو يمكن قتاله بالخيل والرجال، فإنّ عندنا الفرسان الشجعان من ذوي القلوب القويّة والجنان، نقاتل دونك الأعداء والخصوم الألدّاء.

قال الملك:

- من أيّ الأعداء تحفظوني؛ من الذين لا يضرّون أو يضرّون؟

قالوا:

- من الذين يضرّون.

قال الملك:

إذاً؛ هذا رسول البلاء قد أتاني يؤذنني بقرب الرحيل وزوال ملكي عمّا قليل، وأخبرني أنه يريد خراب ما عمّرت وهدم ما بنيت وتبديد ما جمعت وتدمير ما أسّست، وقال لي إنه سيشمت بي أعدائي ويفجع بي أحبّائي، وزعم أنه سيهزم جيوشي ويوحش أنسي ويدمّر مجدي ويؤتم ولدي ويقطّع أوصالي.

قالوا:

- أيّها الملك! نحن نستطيع مواجهة الجيوش الغازية ونصدّ عنك الغارات العاتية، ونحميك من الأسود الضارية وسموم الحشرات والأفاعي والحيّات، أمّا سهام البلاء، فلا طاقة لنا على مواجهة الأقدار، وعاديات الزمان.

قال الملك:

- ألا تستطيعون مواجهة سهام الموت؟

قالوا:

- لا طاقة لنا بذلك.

قال الملك:

- فهل يمكنكم مواجهة ما هو دون ذلك؟

قالوا:

- ما هو؟!

قال الملك:

- الأوجاع والأسقام، والمرض والآلام، والأحزان والهموم.

قالوا:

- وكيف يمكن مواجهة ذلك؟! وإنّ من قدّر هذه الأشياء قويّ لطيف، وهي تنبع من داخل الجسم والنفس.

قال الملك:

- فهل يمكنكم مواجهة ما هو دون هذه الأمور؟

قالوا:

- ما هو؟

قال الملك:

- سهام القضاء والقدر.

قالوا:

- ومن الذي نازل الأقدار ولم يُغلب؟! وواجه القضاء ولم يُهزم ويُدحر؟! كلاّ أيّها الملك؛ لا طاقة لنا بذلك.

قال الملك:

- فماذا بوسعكم أن تفعلوا؟

قالوا:

- لا قدرة لنا في قهر القضاء وصد سهام البلاء، وقد أصبت التوفيق والتسديد؛ فما الذي تريد؟!

قال الملك:

- أريد رفاقاً يدوم عهدهم ويستمر وفاؤهم وتبقى لي أخوّتهم؛ فلا يحجبهم عنّي الموت، ولا يحول دون الاتصال بهم سهام البلاء، ولا يتركونني وحيداً عند حلول الموت.

قالوا:

- أيّها الملك ومن هؤلاء الذين وصفتهم بما وصفت؟!

قال الملك:

- هؤلاء الذين طردتهم بعد أن قرّبتكم.

قالوا:

- أيّها الملك! أ فلا تصنع عندنا وعندهم معروفاً؟ فإن أخلاقك تامّة ورأفتك عظيمة؟

قال الملك:

- إنّ في صحبتكم إيّاي السم القاتل؛ والصمم والعمى في طاعتكم؛

والبكم في موافقتكم.

قالوا:

- وكيف ذلك أيّها الملك؟!

قال الملك:

- إنّ صحبتكم إيّاي صارت في الاستكثار، وموافقتكم لي على الجمع وطاعتكم لي سبّبت لي الغفلة عن يوم حتم؛ هو يوم المعاد والمصير؛، ولقد زينتم لي الدنيا حتّى اعتقدت انها دائمة، ولو أنكم نصحتموني وذكّرتموني بالموت، ولو كانت مرافقتكم لي عن إخلاص، لما جمعتم لي ما هو زائل، ولم تستكثروا لي ما هو فان! فكان الذي تصورتموه أنه نافع لي ضارّاً بي، وكان حبّكم إيّاي في الحقيقة عداء، وكلّ ذلك مردود عليكم لا حاجة لي بكم.

قالوا:

- أيّها الملك؛ قد فهمنا ما قلت وأدركنا ما ذكرت ولدينا الجواب، ولكن ليس لنا أن نحتجّ عليك، ونحن الآن على خطر عظيم؛بعد أن تغيّرت سياستك وتبدّل موقفك، فإذا سكتنا عن الجواب، فإنّ في ذلك ضياعاً لبلادنا وشماتة لعدوّنا.

قال الملك:

- قولوا ما شئتم فأنتم في أمان، وقد مضى زمن الرعب، ولقد كنت فيما مضى من الزمن مقهوراً بالحميّة والأنفة، وأنا اليوم لهما قاهر، ولقد كنت عليكم ملكاً وفي الحقيقة مملوكاً، فأنا اليوم طليق وأنتم أحرار.

قالوا:

- كيف كنت مملوكاً وأنت كنت الملك علينا؟!

قال الملك:

- لقد كنت في الواقع مملوكاً للهوى عبداً للغريزة، وها أنا قد تحرّرت من سطوة الأهواء ونفوذ الغرائز.

قالوا:

- فما الذي قرّرت؟

قال الملك:

- التخلّي عن هذا الملك والقناعة والاتّجاه إلى عالم الآخرة والاستعداد للموت والرحيل عن هذه الدنيا؛ فإنّ رسول الموت قد حلّ عندي وأخبرني بأنّه سيلازمني وسيقيم عندي؛ حتّى تحل ساعة الموت.

قالوا:

- أيّها الملك! ومن هذا الرسول الذي جاءك ولم نره؛ وهو جرس الموت الذي لا نعرفه؟!

قال الملك:

- أمّا رسول الموت، فهذا البياض الذي لاح بين السواد، وهو الآن ينادي في الجميع بالزوال، أ لا ترون في وجهي حزن الوداع وأسى الرحيل؟

قالوا:

- أيّها الملك؛ أ تترك مملكتك وتهمل رعيّتك وشعبك؟ أ لست ترتكب إثماً في إشاعة الفوضى في البلاد وتعطيل مصالح العباد؟ أ لست تعلم أنّ أعظم الأمر في استصلاح الناس وأنّ رأس الصلاح الطاعة للامة والشعب وعامّة الناس.

أ تريد إصلاح نفسك في إفساد شعبك وفي هذا إثم كبير وخطر خطير أكثر ممّا ترجو من الأجر وتأمل من وراء صلاح شأنك والتفكير بمصيرك.

أ لست تعلم أيّها الملك أنّ أفضل العبادة هو العمل، وأنّ أشقّ أنواع العمل هي السياسة، فإنّ ما في يديك أيها الملك المحمود عدل على رعيتك وشعبك، مستصلح للناس بتدبيرك، وإنّ لك من الأجر بقدر ما استصلحت.

إنّك أيّها الملك إذا تخلّيت عن منصبك وعمّا في يديك من صلاح أمّتك، فقد عملت على خراب البلاد ودمار العباد، وإذا فعلت ذلك، فقد حملت من الإثم أعظم ممّا تنال من الأجر في صلاح شأنك الخاص؛ وتركك وإهمالك التفكير في مصير عامّة الناس.

أ لست أيّها الملك تعلم أنّ الحكماء قالوا: من تسبّب في إتلاف نفس فقد استوجب لنفسه الدمار، ومن أصلح نفساً فقد استوجب الصلاح لنفسه، وأيّ دمار أعظم من رفض هذه الأمة التي أنت إمامُها وقائدها ومنظّم شؤونها؟!

حاشا لك أيّها الملك أن تخلع عنك حلّة الملك الذي هو الوسيلة إلى المجد في الدنيا والآخرة!

قال الملك:

- لقد أدركت ما قلتم، وفهمت ما ذكرتم، وعقلت الذي وصفتم، ولقد كان هدفي من الملك عليكم إقامة العدالة فيكم، فإذا أردت الأجر من الله في استصلاح أمور البلاد وشؤون العباد، فكيف أستطيع ذلك من دون وزراء يؤازرونني، ورجال يساندونني؟! وأنتم جميعاً قد اتّجهتم إلى الدنيا وشهواتها والاستمتاع بلذائذها، وربما جرفتني أجواؤكم وتياركم إلى الإخلاد إلى الدنيا مثلكم، ثمّ جاءني الموت فجأة وعلى حين غرّة، فأنزلني عن كرسي الحكم وعرش الملك إلى حفرة في باطن الأرض، ثمّ غطّاني التراب وكساني بعد حلل الديباج والحرير المنسوجة بالذهب

المزيّنة بالجواهر، فانتقلت من القصر الكبير إلى القبر الصغير؛ ومن الفضاء الواسع المنير إلى عالم مظلم ضيق حقير.

فأرتدي الهوان بعد الكرامة، وحيداً فريداً ليس معي رفيق ولا أنيس قد انتقلت من العمران ومغانيه إلى الخراب ووحشته، غريب في وحدتي يقتتل الدود على جسمي، ويأكل التراب لحمي.

وإذا أشدّكم حبّاً لي أسرعكم إلى دفني والتخلّي عنّي؛ فأنا وما قدّمت من عملي وما أسلفت من فعلي، نادم على أيّامي الماضية وسنوات العمر المنصرمة، وإذ لا فائدة من وراء الندم.

وكنتم قد وعدتموني الدفاع ضدّ الأعداء، فإذا أنتم أعجز ما يكون أمام سهام البلاء. كلاّ أيّها الناس لن أخدع نفسي مرّة أخرى، ولن أقع في فخ الغرور.

قالوا:

- أيّها الملك المحمود! إننا لسنا كما كنّا، وقد غيّرنا الذي غيّرك ونحن طوع أمرك ونهيك نسير وراءك ونتبع خطواتك.

قال الملك:

- إذا كان الأمر كما قلتم، فأنا مقيم فيكم وسأبقى معكم ما بقيتم على العهد، فإن خالفتم ونكثتم، فإنّي مفارقكم وراحل عنكم.

فأقام الملك في مملكته يسوس أمورهم ويستصلح شؤونهم، وانتهج جنوده سيرته واجتهدوا في العبادة والصلاح والطاعة لله والسير في طريق الفلاح، فخصبت بلادهم، وتدفقت ينابيعهم، وعمّ الخير ربوعهم، وعلا شأنهم بين الأمم، وقهروا أعداءهم، ودام حكم الملك على هذه السيرة اثنين وثلاثين سنة ثمّ توفّي، فكان جميع ما عاش أربعاً وستين سنة.

أجل يا بن الملك؛ هكذا كانت عاقبة ذلك الملك.

وسكت بلوهر عن الكلام؛ فقال يوذاسف:

- يا لها من قصّة جمعت بين المتعة والاعتبار، فزدني أيّها الحكيم!

حكاية الملك الذي طغى

قال بلوهر:

- قيل إنّه كان ملك من الملوك الصالحين حكم بلاداً، وكان جنوده رجالاً صالحين؛ فهم يعبدون الله ويخشونه، وكان في زمانه نزاع بين الناس واختلاف وتمزّق لا يُرجى منه ائتلاف، حتّى طمع فيهم الأعداء، فشُنّت عليهم الغارات وتفاقمت بينهم المشكلات.

وكان الأعداء يقضمون أرضهم من أطرافها كما يقضم الجائع رغيف الخبز، فكان الملك يحثّ الناس على تقوى الله وخشيته والتوجّه إليه بالعبادة، حتّى صلحت البلاد واجتمعت بعد الفرقة كلمة العباد، فتآلفت القلوب وحلّ الصفاء وعادت إليهم القوّة بعد الخواء، فقهروا الأعداء.

ومرّ على ذلك حين من الدهر نسي الملك التقوى وتجبّر من بعد الترف وطغى، فترك عبادة الله وكفر بأنعمه سبحانه لا إله سواه؛ بل سارع إلى قتل مَن عبد الله، ودام ملك ذلك الملك وطالت مدّته؛ حتّى ذهل الناس عمّا كانوا عليه من الحق والصواب، وأطاعوا الملك وأسرعوا إلى الضلال، ونشأ جيل من الشعب لا يعبد الله؛ بل لا يعرف إلهاً غير الملك، فكان ذلك إلههم من دون الله.

وكان لذلك الملك ابن صالح، فعاهد الله في حياته إن هو تسنّم الملك أن يعمل بطاعة الله وينتهج سيرة جديدة حتّى يبلغ الغاية.

فلمّا أصبح الابن ملكاً بعد أبيه، أنسته أبهة الملك العهد والميثاق، واستغرق في الترف، وأسكرته نشوة الحكم، فما صحا وما أفاق.

وكان بين أركان دولته رجل صالح له شأن عند الملك ومنزلة، فلمّا رأى الملك الابن قد نسي عهده واستغرق في حياة الضلالة، تألّم لما آل إليه حاله، وكان الرجل الصالح كلّما أراد أن ينصحه ويعظه تذكّر عتوّه وجبروته وانقياد البلاد وخضوع العباد، فلم يكن أحد يستنكر ما عليه الملك إلا هو ورجل آخر يعيش في اطراف المملكة لا يُعرف مكانه ولا يدعى باسمه.

وقرّر الرجل الصالح أن يفعل شيئاً.

فلمّا كان صباح يوم، دخل الرجل الصالح على الملك وكان يخفي تحت ثيابه شيئاً، فأجلسه الملك على يمينه كعادته وفقاً لمنزلته وشأنه.

فلمّا استقر بالرجل الصالح مجلسه، أخرج ما كان قد أخفاه؛ فإذا هي جمجمة إنسان مات منذ زمن قديم، ألقى الرجل الصالح الجمجمة عند رجليه ثمّ راح يطأها بقدميه.

وكانت عظام الجمجمة تتحات حتى دنست مجلس الملك، فبان الغضب في وجهه واحمرّت عيناه واستعدّ الحرس بسيوفهم ينتظرون إشارة الملك وأمره؛ حتّى يزهقوا روح هذا الذي يتجرّأ في حضرة الملك.

كلّ العيون كانت تنظر إلى الملك وقد حبست الأنفاس، كلّ ذلك والملك مالك لغضبه، وقد كان الملوك فيما مضى مع جبروتهم وطغيانهم ذوي أناة يملكون أنفسهم؛ لأن ذلك جزءٌ من السياسة وإدارة شؤون المملكة، والناس يهابون الملك الوقور الصبور، الذي ينظر إلى عواقب الأمور؛ ولهذا ظلّ الملك ساكتاً والرجل الصالح مستمر في فعله حتّى انفضّ المجلس، فلفّ الرجل الجمجمة في ثوبه وانصرف.

فلمّا كان اليوم التالي جاء الرجل واستخرج الجمجمة وراح يطأها بقدميه كما فعل بالأمس والملك ساكت لا يتكلّم؛ وهكذا في اليوم الثالث.

فلمّا كان اليوم الرابع جاء الرجل الصالح يحمل الجمجمة ويحمل أيضاً قليلاً من التراب وميزاناً.

في البداية وضع الجمجمة وداسها بقدمه، ثمّ أخذ قليلاً من التراب فوضعه في كفّة الميزان ووضع في الكفّة الأخرى درهماً، ثمّ وزن من التراب قدر وزن الدرهم، ووضعه في موضع عين الجمجمة؛ ثمّ أخذ قبضة من التراب فوزنها، ثمّ وضعها في موضع الفم من الجمجمة.

وفي هذه اللحظة فقد الملك صبره، فقال للرجل بلهجة قاسية:

- أعرف أنك تجرّأت كثيراً وأنّ الذي جرّأك على ما تفعل مكانتك لدي ومنزلتك عندي، وقد سكتُّ عليك احتراماً لك، ولمعرفتي أنك إنما تريد شيئاً من وراء ذلك، فأفصح عمّا تريد!

وهنا انحنى الرجل الصالح للملك إجلالاً، وأدى له ضروب الطاعة، وقال بوقار وأدب:

- أيّها الملك؛ أتمنّى أن تصغي إلى كلماتي بعقلك وضميرك، فإنّ مَثل الكلمة كمثل السهم؛ إذا انطلق وأصاب أرضاً لينة ثبت فيها، وإذا أصاب صخرة صمّاء لم يثبت.

وإنّ مَثل الكلمة كالمطر؛ إذا أصاب أرضاً طيّبة خصبة نبتت فيها البذور، وإذا أصاب أرضاً سبخة لم ينبت فيها شيء.

واعلم أيّها الملك! أنّ في أعماق الإنسان أهواء تتجاذبه، وأنّ في أعماقه عقلاً، وأنّ العقل يصارع الهوى، والهوى يصارع العقل، وأنّ حَلَبة الصراع في القلب، فإن انتصر الهوى على العقل، سلك الإنسان طرق الطيش؛ يتخبّط في كلّ مكان ويلهث وراء غرائزه وأهوائه.

وإن انتصر العقل على الهوى، سلك الإنسان طريقاً واضحاً ممهّداً.

وأنّ الإنسان الذي يتبع أهواءه، فإنّ حياته عبارة عن سلسلة من الأخطاء، ويكون مصيره السقوط في الهاوية، وأنّ الذي يتبع العقل، فإنّه وإن كان يعاني من جهد الصعود، فإنّه لابدّ وأن يصل إلى قمة الجبل.

وإنّي أيّها الملك منذ أن كنت صبيّاً يافعاً، كنت أحبّ العلم وأعشقه وأفضّله على كلّ شيء، فأقبلت على ينابيع العلوم أنهل من هذا النبع ومن ذاك، فازددت في العقل والفهم والإدراك.

وذات يوم دخلت مقبرة عند سفوح التلال؛ فبينما أنا أطوف بين القبور، لاحت لي هذه الجمجمة بين قبور الملوك، فغاظني موقعها وانفصالها عن جسدها؛ غضباً منّي للملوك، فحملتها إلى منزلي، فألبستها الحرير الناعم المنسوج في الصين، ونضحتها بماء الورد والعطر والطيب، وفرشت لها بساطاً منسوجاً في بلاد فارس.

وقلت في نفسي؛ إن كانت هذه الجمجمة من جماجم الملوك، فسيؤثر فيها إكرامي لها وتعود إلى جمالها وبهائها، وإن كانت من جماجم المساكين والصعاليك، فإنّ الكرامة لن تزيدها شيئاً.

فواظبت على ذلك أيّاماً وأسابيع، فلم يتغيّر حالها ولم يتبدّل وضعها، فلمّا رأيت ذلك، أمرت عبداً، هو أهون العبيد والمماليك، أن يهينها، ففعل ذلك أيّاماً، فإذا الجمجمة على حال واحدة عند الإهانة والتكريم.

فانطلقت إلى الحكماء أسألهم عنها، فلم أجد عند أحدهم جواباً، فقلت في نفسي: لم يبق إلا أن أسأل الملك عن هذه الجمجمة، فهو منتهى العلم ومركز الحلم، فجئت إليك خائفاً أن أسألك عن شيء ابتداءً، ففعلت الذي فعلت من أجل أن تخبرني أيّها الملك عنها؛ أ هي جمجمة صعلوك أم جمجمة ملك من الملوك؟!

لقد أعياني أمرها والتفكير في شأنها، فقد حيرتني عينها وقد كانت فيما

مضى لا تملؤها الأشياء؛ فهي تتطلع إلى ما وراء السماء، فاردت أن أعرف ما الذي يملأها، فإذا ملعقة تراب تسدّها.

ونظرت إلى الفم وقد كان يلتهم في نهم ولا يملؤه شيء، فإذا قبضة من التراب تسدّه وتملأه.

فإن أخبرتني أيّها الملك أنها جمجمة مسكين، احتججت عليك بأني قد وجدتها وسط قبور الملوك، ثم آتيك بجماجم بعض الملوك وجماجم بعض المساكين، فإن كان لجماجم الملوك امتياز وأفضليّة، فالحق معك.

وإن قلت إنها جمجمة من جماجم الملوك، أنبأتك أنّ ذلك الملك الذي كان قد كان في بهاء الملك وجماله وعزّته وسلطانه في مثل ما أنت عليه اليوم، فحاشاك أيّها الملك أن يكون مصيرك هذا المصير؛ مجرد جمجمة توطأ بالأقدام وتختلط مع التراب والعظام، وتأكل جسدك الديدان وتصبح وحيداً فريداً بعد أن كانت تحوطك الجيوش والجنود، وتنتقل من هذا القصر المنيف الكبير إلى قبر ضيّق صغير!

ويرث ملكك غيرك ويندثر اسمك وذكرك ويحول بيننا وبينك التراب؛ لا تسمع نداء من يناديك وإن سمعت عجزت عن الجواب، أو لم تعد تكترث لشيء ممّا يجري فوق التراب؛ حيث تستوي لديك الأشياء، فلا التكريم يبهجك ولا الإهانة تغضبك.

تأثّر الملك لكلام الرجل الصالح؛ فقد أصابت كلماته كالسهام أهدافها، فإذا عينا الملك تمتلئان بالدموع، وإذا به يقول:

- لقد أيقظتني من سبات عميق، ولقد أبصرت بعد الآن الطريق، ولقد وعظت فأبلغت، ونصحت فأحسنت.

والتفت إلى حاشيته ورجال دولته وقال:

- إنّ هذا الرجل الصالح له في عنقي الفضل الكبير، وإنّني أعلن أمامه وأمامكم بأنّني سأترسّم خطاه في المسير.

وكان ذلك اليوم، يوماً عظيماً، وسمع الناس من أقصى البلاد إلى أقصاها بفضل الرجل الصالح وما آل إليه ملكهم من حسن السيرة والصلاح، فصلح الناس؛ لأنّ الناس على دين ملوكهم، وازدهرت البلاد وعمّ الخير، وكانت عاقبة ذلك الملك خيراً.

قال يوذاسف:

- زدني من هذه الأمثال أيّها الحكيم!

حكاية الملك وابنه

قال بلوهر:

- قيل إنّ ملكاً من الملوك كان في أوّل الزمان، تزوّج الكثير من النساء على أمل أن يولد له ولد ذكر ولكن دون جدوى، فكانت زوجاته لا تنجب إلا إناثاً، فاستدعى الأطباء من أنحاء مملكته، فوصفوا له أنواعاً من الغذاء ووصفوا أنواعاً من الدواء، فلم يبقِ علاج إلا واستخدمه ولا دواءً إلا استعمله حتى يئس، ثمّ حملت امرأة له من نسائه، فولدت له صبيّاً طار الملك به فرحاً.

ونشأ الصبي ونما وترعرع، وذات يوم كفّ عن الرضاع وانسلّ يزحف على يديه ورجليه، ثمّ توقّف وقال كلمات:

- تولدون.

ثمّ خطا خطوة أخرى وقال:

- وتكبرون!

ثمّ خطا خطوة وقال:

- وتهرمون.

ثمّ خطا خطوة وقال:

- ثمّ تموتون.

ثمّ إنّه عاد يفعل كما يفعل الأطفال في مثل عمره، فاندهش كلّ من سمعه، ووصل الخبر إلى والده الملك، فلمّا سمع الملك بذلك أحضر المنجمين والكهنة، وقال لهم: انظروا في شأنه وأخبروني بأمره!

فنظروا في مولده وتطلعوا إلى النجوم واصطفافها وإلى الأبراج ومطالعها، فلم يكن عندهم فيه علم، فلمّا رأى الملك أنّه ليس عندهم شيء، دفعه إلى المرضعات، فأخذن في إرضاعه حتّى جاء منجّم منهم فقال للملك:

- أيّها الملك إنّي نظرت في النجوم، فرأيت أنّ هذا الصبي سيكون إماماً وأنّ له لشأن كبير!

فلمّا سمع الملك بذلك، أفرد لابنه مكاناً حصيناً وخصّص له حرساً شديداً، فعاش الصبي في قصر حصين يحوطه الحرّاس من كلّ مكان، حتّى عند ما تأخذه المربيّات إلى الحديقة لاستنشاق الهواء الطلق كان الحرس يراقبون بعيون كالصقور.

وكبر الصبي، فلمّا بلغ الثانية عشرة من العمر، انسلّ يوماً في غفلة من عيون الحرس، وخرج إلى المدينة، فلمّا وصل إلى السوق رأى جنازة؛ فسأل:

- ما هذا؟

قيل له:

- هذا إنسان مات.

فسأل:

- وما الذي أماته؟

قيل:

- كبر حتّى صار شيخاً طاعناً في السن وفنيت أيّامه وجاء أجله.

قال الصبي:

- وكان صحيحاً حيّاً يأكل ويشرب؟!

قيل:

- نعم.

ومضى الصبي في طريقه يتجوّل؛ فرأى شيخاً كبيراً قد احدودب ظهره وهو يتوكّأ على عصا ويدب على الطريق دبيب النملة، فراح ينظر إليه متعجّباً؛ فقال:

- ما هذا؟

قيل له:

- رجل شيخ كبير قد فنى شبابه وكبر.

فقال الصبي:

- وكان صغيراً ثمّ شاب؟!

قيل:

- نعم.

فمضى الصبي في طريقه، فرأى رجلاً مريضاً مستلق على ظهره، فنظر إليه

الصبي متعجّباً وقال:

- ما هذا؟

قيل:

- رجل مريض.

قال الصبي:

- وكان صحيحاً معافى ثمّ مرض؟

قيل:

- نعم.

قال الصبي:

- والله إن كنتم صادقين، فإن الناس لمجانين.

ثمّ مضى في طريقه وكان الحرّاس قد افتقدوا الصبي، فانطلقوا يبحثون عنه في كلّ مكان، فانتشروا في أنحاء المدينة حتّى وجدوه قرب السوق، فأخذوه ووضعوه في داخل غرفة ريثما يأتي أمر الملك بشأنه.

فلمّا دخل الصبي الغرفة، استلقى على ظهره وراح ينظر السقف الخشبي وسأل الحراس:

- ما أصل هذا السقف؟

قالوا:

- كان في أصله شجرة ثمّ قُطّعت وصارت خشباً، وصنع منها ألواح هذا الخشب ثمّ بني بها هذا البيت ووضعت على الجدران ألواح الخشب.

وفي الأثناء وصل رسول الملك وسأل الحراس:

- هل قال شيئاً؟

قالوا:

- نعم؛ سألنا عن سقف البيت وأصله وتكلّم بأشياء لا نظنّه إلا وسواساً.

فلمّا وصل الخبر إلى الملك وسمع ما قال ابنه، استدعى الحكماء والمنجّمين وسألهم عن حال ابنه، فلم يجد عندهم علماً إلا ذلك المنجّم الذي كرّر نبوءته وقال:

- إنّه سيكون إماماً.

فلم يقبل الملك قوله، فقال بعضهم للملك:

- نقترح على جلالة الملك أن يقوم بتزويج ابنه، فإنّ ما به سيذهب ويزول وسوف يعقل ويبصر أمره!

ورحّب الملك بهذه الفكرة وبعث رسله إلى أنحاء مملكته للبحث عن فتاة هي الأفضل كمالاً وجمالاً، وسرعان ما وجدوا الفتاة المناسبة، وفرح الملك بعدما رأى تلك الفتاة التي ستكون زوجة لابنه، وأمر الملك بالاستعداد لإقامة أكبر الاحتفالات بهذه المناسبة.

وبدأت التحضيرات للعرس بأبهى وأضخم ما يكون وصدحت الموسيقى وقرعت الطبول وعزف العازفون وقدّم المهرجون عروضاً باهرة وأقيمت الولائم الكبرى؛ فيها ما لذّ وطاب وغنّى المطربون ورقص الشباب، كل هذا والفتى في غرفة من غرف قصره، فلمّا تناهت إلى سمعه الأصوات قال: ما هذا؟ فقيل له: هؤلاء اللاعبون والزمّارون في حفلة عرسك، فسكت الفتى ولم يقل شيئاً.

فلمّا فرغوا من الحفل، قال الملك للفتاة قبل أن تزفّ إلى ابنه:

- اعلمي أنّ هذا ابني الوحيد، فإذا دخلت عليه فتلطّفي له وتقربي منه

وتحببي إليه.

فقالت الفتاة:

- السمع والطاعة لمولاي الملك.

فلمّا زُفّت إليه الفتاة وأدخلت عليه، راحت تدنو منه وتتحبّب إليه وتتقرّب منه، فقال الفتى:

- مهلاً؛ فانّ الليل طويل فدعينا نأكل ونشرب.

وأمر الفتى بإحضار الطعام والشراب، فجاءوا إليه بما لذّ وطاب، وأقبل الفتى على تناول الطعام، وأقبلت الفتاة على تناول الشراب، حتّى سكرت ونامت.

فنهض الفتى وانسلّ من القصر لم يشعر به الحرس ولا البوابّون، وراح يتجوّل في شوارع المدينة، فصادف في طريقه فتىً في مثل عمره، يرتدي ثياباً قديمة، فعرض الفتى ابن الملك على ذلك الفتى أن يتبادلا الثياب، فارتدى ابن الملك ثياب الفتى الفقير، فلمّا أراد ابن الملك أن يودّعه، قال الفتى الفقير:

- ليس لي بيت آوي إليه وأريد أن أرافقك.

فأخبره ابن الملك بقصّته وأنّه ينوي الرحيل إلى مكان بعيد خارج مملكة أبيه، فقال الفتى الفقير:

وما عساني أفعل في هذه البلاد؟! وإني أود مرافقتك وأكره مفارقتك.

فانطلقا إلى خارج المدينة وأمعنا في الابتعاد وسارا الليل كلّه؛ حتّى إذا طلع الفجر، خاف ابن الملك أن تأتي دوريات الحرس للإمساك به، فكمنا في مكان نهارهما كلّه.

وأمّا الفتاة فقد جاء أمر الملك أن تزوره، فدخلت عليها الجواري فوجدوها نائمة، ولم يجدوا الفتى معها، فسألوها عن زوجها، فقالت: كان هنا وقد غلبني

النوم، فأمر الملك بالبحث عن ابنه، وانطلقت دوريات الحرس تبحث عن الفتى في كلّ مكان، فلم يُعثر عليه!

ولمّا حلّ المساء، سار الفتى ابن الملك ومعه رفيقه الليل كلّه؛ حتّى إذا طلع الفجر كمنا النهار خشية الطلب؛ وهكذا.. حتّى وصلا مشارف مملكة أخرى، فاختبآ في مكان فيه أشجار؛ حتّى إذا حلّ المساء وسارا إلى أن دخلا أرض مملكة أخرى.

وكان لملك هذه البلاد فتاة جميلة حسناء، وكان قد عاهدها أن لا يزوّجها إلا من تهوى وتحب، فبنى لها غرفة عالية تشرف على الطريق، فهي تجلس في شرفة الغرفة وتنظر إلى العابرين؛ فلعلّ قلبها يخفق لأحدهم.

وذات يوم وفيما كانت الفتاة جالسة كعادتها في الشرفة، مرّ الفتى في الطريق ومعه صديقة ورفيقه، فلمّا وقعت عيناها على الفتى خفق قلبها وانطلقت خادمتها تخبر أمّها، فجاءت الأم مسرعة تنظر إلى الفتى، ثمّ انطلقت إلى الملك وقالت له:

- إنّ ابنتك قد هويت فتىً.

وأمر الملك بإحضار الفتى وأن يوقف في مكان يتيح للملك أن يراه، فاعترضه الحراس في الطريق وجاءوا به إلى باب القصر، وراح الملك يتطلّع إليه من شرفة النافذة.

ثمّ إن الملك أمر أن يمثل أمامه في ثياب جديدة وأن تنزع عنه ثيابه.

قال الحرس إنّ الملك قد أمر بإحضارك!

فجاءوا بالفتى إلى الملك، فقال له الملك:

- من أنت ومن أين جئت؟

قال الفتى:

- عابر سبيل من مساكين الناس؛ فلِمَ تسأل عنّي؟

قال الملك:

- أنت غريب لست من أهل هذه المدينة، وإنّ لونك يشهد على ذلك، إنّه لا يشبه ألوان أهل هذه المدينة!

قال الفتى:

- لست غريباً؛ أنا كما قلت فقير عابر سبيل.

قال الملك:

- لا تخشَ شيئاً أنت في أمان، فأخبرني بقصّتك.

قال الفتى:

- ليست لديّ قصّة.

فلمّا رأى الملك أنّه يرفض البوح بسرّه، قال له:

- يمكنك الانصراف.

فانصرف الفتى وأمر الملك بمراقبته لمعرفة حقيقته وهويّته.

وقال الملك لزوجته:

- إنّي أراه من أولاد الملوك، وإنّ هذا الفتى ابن ملك لا ريب في ذلك ولا شكّ، ولا أظنّه يوافق على الزواج من ابنتي حتّى لو طلبت منه ذلك.

قالت زوجة الملك:

- وكيف لا يقبل بهذا المجد وهذا الفخار؟! أرسل إليه وسيأتيك.

وأمر الملك أحد مستشاريه أن يذهب إلى الفتى ويخبره برغبة الملك في حضوره. انطلق مستشار الملك وممثله إلى الفتى، وقال له برفق:

- إنّ الملك يودّ رؤيتك لأمر لك فيه شرف كبير.

فقال الفتى:

- وما أنا والملك يدعوني؛ وليست لدي حاجة وهو لا يعرفني؛ وما يدري من أنا؟!

وانطلق مع رسول الملك من دون رغبة في ذلك، وعندما دخل على الملك، نهض له وأشار إلى كرسي قريب من كرسيّه أن يجلس، فجلس الفتى بأدب ووقار، وكانت بنت الملك وزوجته جالستان وراء الستائر وتسترقان النظر إلى الفتى.

قال الملك:

- لقد دعوتك لأمر هام لك فيه مجد وعز وفخار.. إنّ لي بنت قد رغبت في الزواج منك والعيش معك؛ فما تقول؟

قال الفتى:

- لكنّي رجل فقير لا أملك في هذه الدنيا شيئاً!

قال الملك:

- إن كنت فقيراً فسوف تصبح غنيّاً جدّاً؛ بل سأجعلك أغنى رجل في المملكة.

قال الفتى:

- أيّها الملك؛ لست راغباً في الزواج! فإن شئت ضربت لك مَثلاً؟

قال الملك:

- نعم؛ إنني أصغي لك يا فتى!

حكاية الأمير السكران

قال الفتى:

- قيل إنّ ملكاً من الملوك كان له ابن، وكان لابنه أصدقاء ورفاق، وكانوا يذهبون بين فترة وأخرى إلى خارج المدينة للّهو، فيأكلون ويشربون ويلعبون ثمّ يعودون في اليوم التالي.

وذات مرّة دعاه رفاقه إلى الذهاب خارج المدينة كعادتهم، فانطلقوا إلى إحدى البراري وكانت الأرض معشوشبة ونسائم الربيع منعشة، فلعبوا ومرحوا وتغدوا، ثمّ استغرقوا في الشرب والغناء والطرب واللهو حتّى سكروا وناموا.

وفي منصف الليل استيقظ الأمير وتذكّر زوجته، فانطلق عائداً إلى قصره، وكان يترنح في طريقه من فرط السكر، فرأى في طريقه قبراً، فظنّه مدخل قصره، فدخله وامتلأ أنفه برائحة نتنة لأجساد الموتى؛ فظنّها شذى العطور ونسائم الورود الربيعيّة، ثمّ وجد جثّة ميت فظنّها من شدّة سكره زوجته؛ فعانق الجثّة وراح يقبّلها ويعبث بها إلى أن أخذه النوم، ثمّ إنه أفاق عند الفجر وصحا، فنظر فإذا هو في قبر وأنه أمضى ليلته معانقاً جثة إنسان ميت، وإذا ثيابه قد تلوثّت ورائحة الموت تزكم الأنوف.

فارتاع وغادر المكان بسرعة يخاف أن يراه أحد وهو بهذا الحال المزرية، وكانت الطريق خالية فلم يره أحد؛ حيث دخل القصر فألقى ما عليه من الثياب القذرة واغتسل وارتدى ثياباً جديدة وأفرغ على نفسه وثيابه قارورة من العطر الفوّاح.. أيّها الملك؛ أتظنّ أنّ الأمير يعود إلى ذلك المكان مرّة أخرى؟

قال الملك:

- لا.

قال الفتى:

- فأنا ذلك الفتى.

التفت الملك إلى ابنته وزوجته وخاطبهما من وراء الستائر:

- لقد قلت لكما إنه لن يستجيب.

قالت زوجة الملك:

- لأنّك لم تصف ابنتك كما ينبغي، فاسمح لي أن أكلّمه!

قال الملك للفتى:

- إنّ زوجتي تودّ أن تكلّمك وهي لم تكلّم رجلاً قبلك.

قال الفتى:

- كما تشاء!

فخرجت زوجة الملك من وراء الستائر، فحيّت الفتى وقالت له:

- أيّها الفتى! أنت محظوظ وقد حط طائر السعد على كتفيك، إنّ ابنة الملك قد رغبت فيك، وهي أجمل فتاة في البلاد، وستعيش في قصر كبير، وستكون من أسعد الناس.

فقال الفتى للملك:

- أفلا أضرب لها مَثلاً؟

قال الملك:

- نعم.

حكاية اللصوص والصندوق الذهبي

قال الفتى:

- قيل إنّ بعض اللصوص اجتمعوا ليلاً وتواعدوا على أن يدخلوا خزانة الملك ويسرقوا ما خف حمله وغلا ثمنه، فعملوا على حفر نفق تحت الأرض، ثمّ تسلّلوا إلى مكان الخزانة، فلمّا دخلوها رأوا أشياء ثمينة لم يروا مثلها أبداً، ولمحوا صندوقاً من الذهب عليه قفل من الذهب، فقالوا: لا يوجد أثمن من هذا الصندوق، فإنه من ذهب وقفله من ذهب، فإنّ الذي داخل الصندوق هو أثمن وأفضل وأغلى من الذهب، فأخذوا الصندوق إلى خارج المدينة ودخلوا وادياً كثير الأشجار.

وبادروا إلى فتح الصندوق وهم في حالة حرص شديد وما إن فتحوا الصندوق حتّى وثبت الأفاعي في وجوههم ولدغتهم جميعاً فماتوا. أيّها الملك؛ لو أنّ أحداً علم بما جرى على اللصوص، فهل يدخل يده في ذلك الصندوق الذهبي؟

قال الملك:

- كلاّ.

قال الفتى:

- فأنا هو.

وجاء صوت الفتاة تخاطب أباها الملك:

- اسمح لي يا أبي أن أكلّمه وأن أخرج إليه، فإنّه إذا رأى حسني وجمالي وقدّي ودلالي، فإنه لابدّ وأن يستجيب!

قال الملك للفتى:

- إنّ ابنتي تودّ أن تكلّمك وأن تقابلك، وهي لم تقابل رجلاً قبل ذلك أبداً.

قال الفتى:

- كما تشاء!

فخرجت الفتاة من وراء الستائر وحيّت الفتى، ثمّ قالت له:

- انظر يا فتى إليّ؛ فهل رأيت أجمل مني وأحلى؟ وهل رأيت قدّاً كقدّي وحسناً كحسني ودلالاً كدلالي؟ وإني قد هويتك وأحببتك وأرغب في الزواج منك، فاقبل تحيا سعيداً، وإلا ستبقى فقيراً وحيداً.

نظر الفتى إلى الملك وقال:

- أ فلا أضرب لها مثلاً؟

قال الملك:

- نعم.

حكاية ابن الملك الأسير

قال الفتى:

- قيل أيّها الملك إنّ ملكاً كان له ابنان، وكانا يحاربان معاً في جيش أبيهما ضدّ جيش مملكة مجاورة، فوقع أحدهما في الأسر.

فوصلت الأخبار إلى أبيه أنّ ابنه قد وُضع في مكان، وأنّ الملك قد أمر كلّ من يمرّ به أن يرميه بحجر، وأنه مصفّد بالسلاسل والحبال والقيود والأغلال.

فحزن الأب حزناً شديداً، فقال ابنه الآخر:

- لا تحزن يا أبي سأعمل على إنقاذ أخي، فأرجو أن تسمح لي بالذهاب!

قال الملك:

- انطلق وخذ ما شئت من المال وخزائني مفتوحة لك.

وانطلق ابن الملك واشترى بضائع كثيرة وارتـدى زيّ التجّار واشترى خيلاً وبغالاً وجمالاً وألف قافلة كبيرة، ثمّ اصطحب معه عدداً من المغنّيات والمطربات، وبكل ذلك انطلق بالقافلة التجاريّة إلى أرض تلك المملكة، وكان يسير جزءاً من الليل ومعظم النهار حتّى وصل أرض تلك المملكة، فدخلها واتّجه إلى عاصمتها، فلما وصل قريباً منها، توقّف في ظاهرها وعند مشارفها.

ثمّ أمر بإقامة السوق لعرض بضائعه، وطلب من المغنيات والعازفات أن يتهيّأن للعزف والغناء، ولم يكن يعرف بأمره أحد إلا شخص واحد كان قد أسرّ إليه وجعله نائباً له ومعاوناً ورئيساً على القافلة في حالة غيابه.

فلمّا أقام السوق وعرض قسماً من البضائع وسمع الناس أصوات العزف والغناء، تدفقوا إلى ذلك المكان.

وكان ابن الملك قد أوصى ببيع البضائع بأرخص الأثمان، ثمّ تسلّل إلى المدينة وكان يعرف أين يقع السجن الذي وضعوا فيه أخاه، وأراد أن يعرف مدى قوة أخيه، فأخذ حصاة صغيرة ورماه بها، فصاح أخوه قائلاً :

- قتلتني.

ففزع الحرّاس عند ذلك وخرجوا وسألوه:

- لم صِحت وهذه أوّل مرّة تصيح فيها وتتألّم، وهذا الرجل رماك بحصاة صغيرة ونحن نعذّبك وكلّ من يمرّ بك يضربك بحجر، فلم نسمعك تتألّم وها أنت تصيح من حصاة صغيرة؟!

قال ابن الملك الأسير:

- إنّ الناس لا يعرفونني ويجهلون أمري، أما هذا فهو يعرفني.

وكان أخوه قد فرّ وابتعد حتّى لا يكشف الحرّاس أمره، وطلب من معاونه وأمين سرّه أن ينشر المزيد من الأقمشة ويعرضها بثمن رخيص، وطلب منه

أن يأمر المطربات أن يغنين بأجمل الأغاني، ثمّ تسلّل إلى المدينة وتمكّن من الدخول على أخيه؛ ففكّ عنه القيود والأغلال، ونقله إلى خارج العاصمة، ووضع على جراحه الدواء وقام بتضميده، وقال له:

- إذا تحسّنت حالك، فسأضعك في طريق تؤدّي بك إلى البحر، وهناك ستجد سفينة تأخذك إلى بلادنا.

قال أخوه:

- أنا في حال جيدة وأستطيع السير، فإنّ الأسير يعرف قيمة الحريّة، فما إن يجد فرصة للهروب حتّى يجد أنّ لديه القوّة ليس على السير فحسب؛ بل لو شاء فيمكنه أن يطير.

وهكذا سار الابن الأسير في الطريق المؤدّية إلى البحر الكبير، وفيما هو يسير وقد غمر الظلام، إذا بقدمه تزلّ فسقط في بئر مهجورة، فتعلّق بغصن شجرة عند حافتها، وبقي معلّقاً حتّى طلع الفجر، فنظر إلى أسفل البئر فرأى تنيناً ورأى في أعلى الشجرة اثنى عشر غولاً وفي أسفلها اثني عشر سيفاً معلّقاً مسلولاً؛ فلم يخرج من البئر إلا بشقّ الأنفس، وواصل السير حتّى وصل إلى البحر، فوجد سفينة بانتظاره، فركب فيها وجرت السفينة تمخر مياه البحر؛ حتّى وصل شواطئ بلاده.

أيّها الملك! أ فترى هذا الفتى يرجع إلى ما قد رأى ولقي وما عليه جرى؟!

قال الملك:

- كلاّ.

قال الفتى:

- فأنا هو.

فشعروا باليأس من الفتى.

ومضى الفتى، فالتقى رفيقه وحدّثه بما جرى؛ فقال الفتى الفقير:

- إن كنت لا ترغب بالزواج من ابنة الملك فاخطبها لي!

فانطلقا إلى الملك؛ فلمّا دخلا عليه قال الفتى:

- أيّها الملك إنّ رفيقي هذا يقول: إني أرغب في الزواج من ابنة الملك.

فقال الملك:

- إنها لا ترغب فيه ولن أزوجها منه.

فقال الفتى:

- أ فلا أضرب لك مثلاً؟

قال الملك:

- نعم.

حكاية رجل في جزيرة الغيلان

قال الفتى:

- يُحكى أنّ رجلاً ركب سفينة مع جماعة من التجّار، فجرت السفينة في البحر ليالي وأيّاماً، ثمّ عصفت الريح بالسفينة، فتحطّمت بالقرب من جزيرة، وغرق من فيها؛ إلا ذلك الرجل.

وألقته أمواج البحر في شاطئ الجزيرة، وكانت غيلان الجن تشرف على البحر من فوق جبالها، وفيما هو يسير على الشاطئ وقعت عيناه على جنيّة غاية في الحسن، فهوى فؤاده إليها وبات معها تلك الليلة.

وكانت تلك الجنيّة إذا هواها رجل أخذته، فيبات معها مضاجعاً، فإذا كان

السحر ونام الرجل ذبحته وقسّمت أعضاءه على صويحباتها من غيلان تلك الجزيرة، وانتبه الرجل فبقي حذراً لا ينام إلى أن طلع الفجر، فقامت وانصرفت وانسلّ الرجل هارباً إلى الشاطئ، فلمح سفينة قرب الساحل، فاستغاث ونادى أهلها، فأرسلوا قارباً حمله إلى السفينة، وعاد الرجل إلى أهله.

أمّا الجنيّة، فقد جاءت صويحباتها وسألنها:

- أين الرجل الذي بات معك؟

قالت:

- قد فرّ منّي.

قلن:

- أنت تكذبين! وقد استأثرت به وأكلتيه ولابدّ من قتلك أو تأتينا به!

فغاصت الجنيّة في الماء ولحقت به في الميناء، فتمثلت له في هيئة فتاة حسناء جالسة قرب كوخ صغير، فاستسقاها ولم يكن ظامئاً، فرحبت به وجاءته بقدح فيه ماء بارد زلال.

ثمّ دعته للاستراحة من مشاق السفر وغثيان البحر، وسألته عن سفره وما جرى عليه، فقال:

- لقد أنقذني الله من الغرق بعد أن تحطّمت السفينة، وألقتني الأمواج في شاطئ جزيرة الغيلان؛،وقد أنقذني الله من الغولة؛ لأنني لو نمت تلك الليلة لذبحتني في السَّحَر.

قالت الفتاة الحسناء:

- وهل نجوت؟

قال الرجل:

- نعم؛ ألست حيّاً جالساً في كوخك؟

قالت الفتاة:

- فأنا تلك الغولة وقد جئت لذبحك.

فلمّا سمع الرجل ذلك انهار باكياً وقال:

- ارحمي أطفالي الصغار، وارحمي أُمّي عجوزاً ليس لها أحد غيري.

قالت الجنيّة:

- إنني أرحمك، ولكن لابدّ من رجل غيرك.

قال الرجل:

- سأدلّك على رجل يصلح لك.

فأخذها الرجل إلى الملك ودخلا عليه.

قالت الجنيّة:

- أيّها الملك؛ اسمع منّا؛ إنّي تزوّجت بهذا الرجل وهو من أحبّ الناس إليّ، ثمّ إنه كرهني وكره صحبتي، فانظر في أمرنا، فلمّا رآها الملك، افتتن بجمالها وأخذ بيد الرجل وخلا به، فأسرّ إليه قائلاً:

- أتكرهها حقّاً؟!

قال الرجل:

- نعم.

قال الملك:

- لقد هويتها وأحب أن تطلقها لكي أتزوّجها.

قال الرجل:

- نعم؛ ما تصلح إلاّ لك.

فتزوّج بها الملك تلك الليلة؛ وبات معها، فلمّا كان السحر ذبحته وقطّعت أعضاءه وحملته إلى صويحباتها؛ ثمّ قال الفتى:

- أ فترى أيّها الملك أحداً يعلم بهذا ثمّ ينطلق إليه؟

قال الملك:

- كلاّ!

ولمّا سمع الفتى الفقير ذلك، قال:

- لن أفارقك بعد الآن، ولا حاجة لي في الزواج من ابنة الملك.

فخرجا من عند الملك يعبدان الله ويسيحان في الأرض، وارتفع شأن الفتى وهدى الله به كثيراً من الناس وطار صيته في الآفاق.

وبعد سنوات تذكّر والده، وقال في نفسه لو بعثت إليه لأنقذته ممّا هو فيه من الضلال، فأرسل إليه صديقه، وانطلق ذلك الفتى الفقير إلى مملكة والد الفتى، فدخل عليه وقال:

- إنّ ابنك يحييك ويرسل تحياته إليك.

ثمّ قصّ عليه ما جرى على ابنه وما بلغه من الكمال، وأبلغه دعوة ابنه إلى انتهاج طريق الخير والإحسان إلى الناس والتزام العدالة في الحكم. وآل أمر المملكة إلى الخير بعد أن آمن أهلها وسلكوا طريق الصواب.

الإشراق

وسكت بلوهر بعد أن رأى عمود الفجر، ثمّ نهض للانصراف، فحيّا يوذاسف

وحيّاه، فلمّا كان مساء اليوم التالي، عاد بلوهر والتقى يوذاسف، فتحدّثا شطراً من الليل، ثمّ نهض بلوهر لينصرف.

وهكذا.. عدّة أيّام وليال حتّى أدرك أنّ يوذاسف قد انفتحت عليه نافذة من السماء وقد أشرق النور على فؤاده واكتشف الطريق، فاستأذن للسفر والرحيل، وبقي يوذاسف حزيناً أسِفاً على رحيل بلوهر.

ومرّت سنوات، وذات مساء وكان الوقت في السحر، ظهر الملاك ليوذاسف وخاطبه قائلاً:

- لك الخير والسلامة!

أنت إنسان بين البهائم من الجهّال.

أتيتك بالتحيّة من الحق وإله الخلق.

بعثني إليك لأبشّرك وأذكر لك ما غاب من أمور دنياك وآخرتك.

فاقبل بشارتي ومشورتي ولا تغفل عن قولي.

اخلع عنك الدنيا وانبذ عنك شهواتها.

وازهد في الملك الزائل والسلطان الفاني الذي لا يدوم.. وعاقِبته الحسرة والندم.

واطلب المُلكَ الذي لا يزول والفرح الذي لا ينقضي والسلام الذي لا يتغيّر.

وكن صدّيقاً عادلاً مقسطاً، فإنك تكون إمام الناس تدعوهم إلى الجنّة.

فلمّا سمع يوذاسف كلام الملاك، سجد لله وقال:

- إنّي لأمر الله متّبع وبوصاياه ملتزم، أنفّذ أمره وأحمده وأمجّده، وإنّني منذ وعيت وجودي كنت أترقب هذا الأمر.

قال الملاك:

سأعود بعد أيّام، فوطّن نفسك للخروج! ولا تغفل لحظة أبداً.

واستعدّ يوذاسف للخروج، وكان همّه ذلك لا يفكّر إلا فيه، ولم يُطلع أحداً، حتّى إذا حان وقت خروجه جاءه الملاك، وقال له:

- اخرج يا يوذاسف ولا تتأخّر، فقد حان وقت الخروج!

وخرج يوذاسف ولم يكن يعلم سرّه إلا فتىً اسمه «رامد»، فقد اطمأنّ إليه منذ وقت، وعندما اطّلع على نيّة يوذاسف دمعت عيناه، وقال له:

- إلى أين تذهب يا بن الملك؟! ولماذا تتركنا وتترك بلادك وملكك؟! أقم في أرضك ووطنك، فإنّا منذ ولدتَ في رخاء وكرامة ولم يصبنا مكروه.

قال يوذاسف:

- امكث أنت في بلادك وأهل مملكتك، فأمّا أنا فذاهب إلى حيث بُعثت ومنفّذ ما أمرت به!

فقال الفتى:

- بل أرافقك؛ لأنّ نفسي لا تطاوعني أن أدعك وحيداً تواجه الأذى الذي لم تتعوّده؛ فكيف تعيش وحدك ولا تستوحش وأنت لم تكن وحدك يوماً قط؟! وكيف سيتحمل جسدك الجوع والظمأ والنوم على الأرض والتراب؟!

ركب يوذاسف حصانه والفتى معه، فسارا ما شاء الله، ثمّ إنه نزل عن فرسه والفتى يقود فرسه حتّى إذا أمعنا في الابتعاد عن المدينة، قال يوذاسف:

- حان وقت رجوعك وعودتك!

فقال الفتى باكياً:

- دعني أرافقك وأذهب معك إلى حيث تشاء، فإنه لا كرامة لي بعدك، فإن لم تسمح لي بمرافقتك، خرجت إلى البراري، فبماذا أجيب أبويك إن هما سألاني؟! وبأيّ عذاب وموت سيقتلاني؟!

قال يوذاسف مطمئناً إيّاه:

- اطمئن ولا تجعل في نفسك إلا خيراً.

ثمّ إنّ يوذاسف خلع حلّة الملك وأعطاها للفتى، وقال:

- البس هذه الحلّة.

ثمّ أعطاه الياقوتة التي يضعها على رأسه، وقال له:

- اركب الفرس وخذ الياقوتة والبس الحلّة وأبلغ تحيّتي الملك وأعيان الدولة، وقل لهم: إنّ يوذاسف يقول: إني لمّا نظرت بين الباقي والزائل الفاني، رغبت في الباقي وزهدت في الزائل، ولما استبان لي أصلي وحسبي، ولما كان عليّ أن أختار بينهما وبين الأعداء والأقرباء، رفضت الأعداء والأقرباء وانقطعت إلى أصلي وحسبي.

وربّت يوذاسف على كتف الفتى، وقال:

- إنّ والدي إذا رأى الياقوتة طابت نفسه، وإذا أبصر بالحلّة عليك ذكرني وذكر حبّي لك، وسوف يمنعه ذلك من أن ينالك بمكروه.

وودّع يوذاسف الفتى وانطلق ممعناً في السير مشياً على الأقدام، فوصل إلى فلاة واسعة مستوية، وكانت الشمس قد جنحت للمغيب ولامست خط الأفق واستحالت إلى قرص أحمر قاني اللون، فجلس ليستريح.

الرؤيا

كان الصمت يغمر المكان ما خلا نسائم رقيقة تهبُّ برفق، وحل المساء

وغمر الظلام الأشياء، وشيئاً فشيئاً سطعت النجوم في السماء.

آلاف آلاف النجوم المرصّعة في السماء تومض في أغوارها السحيقة، فامتلأت نفس يوذاسف بنور قادم من أعماق السماوات السحيقة، وسطعت في أعماقه أنوار الحقيقة، وبين اليقظة والمنام ظهر الملاك يقول له:

- إذا أصبحت، فإنك تقابل خمسة أشياء؛ فأوّل شيء يستقبلك فكله، والثاني فاكتمه، والثالث فاقبله، والرابع فلا تؤيسه، والخامس فاهرب منه. هكذا يأمرك الربّ!

استيقظ يوذاسف وقد بزغت الشمس، فنهض وسار في طريقه، فلاح له من بعيد جبل أسود شاهق عظيم، فتوقّف عن السير، وقال:

- أمرني ربّي أن آكل هذا!!

وظلّ حائراً، ثمّ راجع نفسه وقال:

- إنّ ربّي لا يأمرني إلا بما أطيق.

وواصل يوذاسف السير باتّجاه الجبل ليأكله، وكان كلّما اقترب منه صغر حتّى إذا وصل إليه وجده لقمة لذيذة المذاق؛ فتناولها ووجدها أطيب شيء أكله.

ثمّ واصل سيره، فإذا عيناه تقعان على آنية من ذهب غاية في الجمال والألق، فقال في نفسه: أمرني ربّي أن أكتم الثاني.

فحفر حفرة في الأرض ودفن آنية الذهب وأهال التراب، ثمّ مضى في طريقه، فالتفت فإذا آنية الذهب تظهر مرّة أخرى تتألق تحت أشعّة الشمس، فقال في نفسه: لقد قمت بما أمرني ربّي.

وواصل يوذاسف السير، فإذا هو يصادف حمامة برّية يطاردها بازيّ، والحمامة تطوف حوله وترفرف، فقال يوذاسف في نفسه: أمرني ربّي أن أقبل

الثالث، ففتح يوذاسف أردانه وكمه فأوت الحمامة إليه.

فقال البازي: أخذت صيدي وحرمتني من طعامي!

فما كان من يوذاسف إلا أن قطع له من فخذه قطعة وألقاها إليه، ثمّ واصل سيره، فإذا عيناه تبصران لحم ميتة منتن مليء بالديدان، فقال يوذاسف في نفسه: أمرني ربّي أن أهرب من هذا، فهرب منه.

فلمّا كان المساء ونام، رأى في المنام قائلاً يقول له:

- إنك قد فعلت ما أُمرت به، فهل تدري ماذا كان؟

قال يوذاسف:

- لا.

فقال الملاك:

- أمّا الجبل، فهو الغضب وأنّ الإنسان إذا غضب انطفأ نور عقله وفقد وعيه بسبب شدّة الغضب، فإذا ضبط نفسه وظل محافظاً على وعيه وسكن غضبه، كانت عاقبة ذلك كاللقمة الطيّبة التي أكلتها. وأمّا آنية الذهب، فهو العمل الصالح إذا كتمه الإنسان وأخفاه، فإنّ الله يظهره فيتألّق به الإنسان وتتحلّى به شخصيّته بين الناس إضافة إلى ما وعده الله من الثواب في عالم الآخرة.

وأمّا الحمامة، فهو الإنسان المحتاج؛ الذي يأتيك بنصيحة، فاقبله واقبل نصيحته.

وأمّا البازي، فهو الإنسان الذي يأتيك في حاجة فلا تؤيسه.

وأمّا اللحم المنتن، فهو الغيبة فاهرب منها!

المشهد المضيء

واستيقظ يوذاسف وكانت روحه أشدّ سطوعاً بالنور الذي أشرق على قلبه، وواصل سيره إلى أن وصل إلى فضاء واسع، ورأى شجرة باسقة قد نبتت عند نبع ماء يتدفّق صافياً عذباً زلالاً.

وكانت الشجرة كثيفة الأغصان محملة بأشهى الثمار وقد اجتمعت إليها أنواع الطيور، فشعر يوذاسف بالفرحة تملأ صدره.

كانت طيور من كلّ نوع ومن كلّ شكل ولون تصدح بأصوات مختلفة وألحان متنوّعة.

واقترب يوذاسف من ذلك المشهد حتّى شعر أنه يدخل فيه ويصبح جزءاً منه وفسّره في نفسه؛ فشبّه الشجرة بالبشرى التي دعا إليها، ونبع الماء بالحكمة والعلم، والطيور بالناس يجتمعون إليه ويأخذون منه الدين.

الملائكة

وبينما يوذاسف واقف يتأمّل وقد ذاب وامتزج في مشهد الشجرة والنبع والطيور، إذا بأربعة من الملائكة يهبطون في جهاته الأربع، وإذا به يرتفع إلى السماء فوق السحب والغيوم.

وفي نقطة ما في الأعالي حيث يشرق صبح الأزل، تلقى يوذاسف من العلم والحكمة ما أدرك به الأولى والوسطى والأخرى والذي هو كائن.

وهبط به الملائكة الأربعة، فارتفع ثلاثة وبقي واحد يرافقه في سفره.

وبعد مدّة من الزمن قضاها في تلك الأرض، عاد إلى موطنه في أرض «سولابط»، ووصلت أخبار قدومه إلى والده، فخرج مع أركان دولته لاستقباله، ونُصب له منبر واحتشد الناس حوله.

وجاءوا إليه من كلّ حدب وصوب يحيّونه ويرحّبون بعودته، فخطب فيهم قائلاً:

الوصايا

- اسمعوا إليّ بأسماعكم وفرّغوا إليّ قلوبكم لاستماع حكمة الله التي هي نور النفوس، وانهلوا العلم الذي هو الدليل على طريق الرشاد، وأيقظوا عقولكم واعرفوا الفاصل الذي يفصل بين الحق والباطل والضلال والهدى..

واعلموا أنّ هذا هو دين الحق الذي أنزله الله على الأنبياء والرسل في القرون الأولى منذ مطلع التاريخ، ولقد خصّنا الله به في هذا القرن رحمة منه بنا ورأفة وحناناً من لدنه علينا وفيه الخلاص من الشقاء.

واعلموا جميعاً؛ أنّ الإنسان لا ينال ملكوت السماوات ولا يدخلها ؛ إلا بالإيمان وعمل الخير، فابذلوا كلّ ما بوسعكم في عمل الخير؛ لتبلغوا السعادة الدائمة والحياة الخالدة في عالم الأبديّة، والذي يؤمن ينبغي ألاّ يكون إيمانه بالدين طمعاً في الحياة الدنيا ورجاءً لملك الأرض وطلب الدنيا.

وليكن إيمانكم من أجل بلوغ ملكوت السماوات ورجاء الخلاص وطلب النجاة من الضلال والضياع والوصول إلى مملكة السماء، فان مملكة الأرض زائلة وسلطانها فانٍ ولذائذها ومتعها إلى نفاد.

فلا تنخدعوا بالدنيا، فإنها حياة تنطوي على أسباب الموت، وإنّ الموت مقرون مع أجسادكم، وهو يترصّد أرواحكم يفصلها عن الأجساد.

واعلموا يا بني الإنسان؛ أنّه كما أنّ الطير لا يستطيع الاستمرار في الحياة والنجاة من الأعداء من اليوم إلى غد؛ إلا بقوّة من البصر والجناحين والرجلين؛ فكذلك الإنسان، لا يقدر على الحياة والنجاة؛ إلا بالعمل والإيمان وأعمال الخير

الكاملة.

فيا أيّها الملك! ويا أيّها الأشراف! فكّروا بكلماتي وأصغوا إلى ما فيها وافهموا معانيها واعتبروا.

أيّها الناس! اعبروا البحر مادامت السفينة راسية، واقطعوا المسافة مادام الدليل موجوداً ومادام الزاد متوافراً، واسلكوا الطريق مادام المصباح مضيئاً، وأكثروا من كنوز البِرّ مع النسّاك وشاركوهم في الخير وأعمال الصلاح، وأرشدوا أبناءكم وكونوا لهم أعواناً وكونوا لهم قدوة بأعمالكم؛ لينتهجوا الطريق القويم وينزلوا معكم ملكوت النور.

أيّها الناس! آمنوا بالنور واقبلوه، وحذار أن تثقوا بالدنيا وتركنوا إلى أمانيها، واجتنبوا الشرور، فإنها تدمّر أرواحكم، وإيّاكم والتعصّب والغضب والحقد، وما لا ترضونه لأنفسكم لا ترضوه لأحد، وما لم تحبّوا أن يؤتى إليكم، فلا تؤتوه إلى أحد، وكونوا طاهري القلوب صادقي النوايا؛ لتكونوا على المنهاج الساطع إذا جاءكم الأجل.

ومكث يوذاسف في أرض «سولابط» ينتقل من مدينة إلى أخرى، ثمّ سافر إلى بلاد ومدائن كثيرة؛ حتّى وصل أرضاً تسمّى كشمير، فساح فيها وكان يحيي أرضها الموات، ورافقه تلميذ يدعى «يابد»، وكان يقوم على خدمته.

وبقي سنوات يسيح بين القرى ويعبر السفوح والتلال؛ حتّى شعر بدنو الأجل، فألقى عصا الترحال على سفوح أحد الجبال، فبنى له سقيفة من جذوع الأشجار، وقال لتلميذه يابد:

- لقد جاء الأجل الذي يخلع عن روحي الجسد فأرتفع إلى النور.

وتمدّد يوذاسف تحت السقيفة، فجعل رأسه إلى المغرب ووجهه إلى المشرق، وقال بصوت واهن:

- إنه قد دنا ارتفاعي عن الدنيا، حافظ على فرائضك، ولا تزغ عن الحق، وخذ بالنسك.

وتوقفت الكلمات على شفتيه، وكانت الشمس قد بزغت، فسطع وجه يوذاسف بنور ذهبي، وأغمض عينيه ومضى في رحلة إلى الملكوت.

وهكذا؛ ارتفع يوذاسف إلى النور.. إلى ملكوت السماوات وعالم الخلود.

هكذا تكلّم يوذاسف

- من يريد معرفة الله، فعليه أن يعرف نفسه.
- اعمل بما تعلم.
- العلم ضوء المعرفة.
- الإنسان المؤمن لا يعرف الحقد.
- الإيمان الحقيقي ما يشعل الحس الإنساني الرفيع المشوب بالعاطفة والرحمة للناس.
- أليس مدهشاً أن يبحث الإنسان عن أشياء تافهة ولا يبحث عن نفسه؟!
- ينهار المجتمع، عندما يتهتك العالِم ويتنسك الجاهل.
- لا تتبع العالِم الذي أسكرته الدنيا.
- الحرب الكبرى هي الحرب مع الشيطان.
- حذار من السلطة؛ فإنها خمرة معتّقة.
- الموت قنطرة، ومن يراها فقد أشرق الضوء على قلبه.
- كثرة الأماني تؤثّر على خلل في العقل.

- الإلهام شعاع قادم من عمق السماوات.
- النفس فارس والبدن فرس، وعمى الفارس أشد خطراً من عمى الفرس.
- تضيع الحقيقة في فوضى الألفاظ.
- العقل فانوس، والشريعة زيت.
- العقل شريعة في الداخل، والشريعة عقل في الخارج.
- البصير يعجز عن الرؤية في الظلام، والأعمى يعجز عن الرؤية في وضح النهار.
- الجسم مملكة النفس.
- الدموع تغسل القلب وتزيده رِقة.
- القلب مرآة تنعكس فيه أضواء السماء.
- في معالجة المريض؛ الدواء أولاً ثمّ الغذاء.
- الذي يتّجه نحو المشرق يبتعد عن المغرب؛ إذا أردت الآخرة، فابتعد عن الدنيا.
- في القلب نافذتان؛ إحداهما مفتوحة على عالم الملكوت، والأخرى ينفذ منها الشيطان فأغلقها بإحكام.
- القلب كالعصفور؛ يقفز من غصن إلى غصن.
- الجوع سُحُب الحكمة في النفس؛ فإذا جاع المرء أمطرت بالحكمة.
- ليس مهماً معرفة ماهية الشيطان؛ المهم مواجهته.
- من قطع علاقته بالدنيا، استمتع بلحظة الرحيل.
- إذا فرحت للخير وحزنت للشر؛ فأنت إنسان.

- اسأل القلب عن الحب، إنه شاهد لا يرتشي.
- المعدة الممتلئة غيمة سوداء تحجب شمس المعرفة.
- بريق الذهب يخطف عين الفؤاد.
- الظلم زلزال يحيل القلب إلى أنقاض.
- القناعة مجد الإنسان الحرّ.
- الأطماع قيود وسلاسل وأغلال.
- الدنيا حقل؛ ازرع قمحاً تحصد قمحاً، ازرع شوكاً تحصد شوكاً.

صدر لمؤسسة كلمات للطباعة والنشر

سلسلة في ظلال الزيتونة:

٠. في ظلال الزيتونة، رواية حول المعصومين عليهم السلام
١. اسمه أحمد، رواية حول النبي محمد صلى الله عليه وآله
٢. إلا علي، رواية حول الإمام علي عليه السلام
٣. دموع السماوات، رواية حول الإمام علي عليه السلام
٤. فاطمة حورية الأرض، رواية حول فاطمة الزهراء عليها السلام
٥. وكانت صديقة، رواية حول فاطمة الزهراء عليها السلام
٦. عاصفة السلام، رواية حول الإمام الحسن عليه السلام
٧. ألم ذلك الحسين، رواية حول الإمام الحسين عليه السلام
٨. أطول يوم في التاريخ، رواية حول الإمام الحسين عليه السلام
٩. الثورة امرأة، رواية حول السيدة زينب عليها السلام
١٠. وسلاحه البكاء، رواية حول الإمام السجاد عليه السلام
١١. عليه السلام، رواية حول الإمام الباقر عليه السلام
١٢. جعفر أيها الصديق، رواية حول الإمام الصادق عليه السلام
١٣. على جسر بغداد، رواية حول الإمام الكاظم عليه السلام
١٤. الطريق إلى خراسان، رواية حول الإمام الرضا عليه السلام
١٥. وكان تقياً، رواية حول الإمام الجواد عليه السلام
١٦. تراتيل في زمن الذئاب، رواية حول الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام
١٧. فارس الزمن الغائب، رواية حول الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف
١٨. بانتظار الذي يأتي، رواية حول الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف
١٩. الشمس وراء السحب، رواية حول الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف
٢٠. نهاية التاريخ

سلسلة شهداء العراق

١. عواطف وأمل، رواية حول الشهيدتين عواطف الحمداني وأمل الربيعي

٢. السماء تفتح أبوابها في المساء، رواية حول الشهيدة فاطمة الحسيني
٣. سمراء الجنوب، رواية حول الشهيد سميرة عودة المنصوري

كتب متنوعة

١. النفس في قفص الاتهام
٢. الإمام الخميني قوة الحق
٣. الشمس وحديث المرايا، إضاءات على حياة الإمام الخامنئي
٤. قمر الحسين، رواية حول أبا الفضل العباس عليه السلام
٥. ويكتب وصيته الأخيرة، رواية قصيرة حول الشهيد قاسم سليماني
٦. الفدائي، أضواء على سيرة وحياة الشهيد نواب صفوي
٧. سيد غابات الشمال، الشهيد ميرزا كوجك خان
٨. قصة بلوهر ويوذاسف **(هذا الكتاب)**

سكت بلوهر عن الكلام، ثمّ قال:
وإني آمل أن تكون ذلك الرجل يا ابن الملك الذي لم يستأنس بالغرباء ولم يغترّ بالسلطان، وأنا الرجل الذي تبحث عنه ولك عندي ما تنشد من المعرفة.
قال يوذاسف:
صدقت أيها الحكيم، أنا ذلك الرجل الذي يبحث وأنت ذلك الرجل المطلوب وأنت ضالّتي التي بحثت عنها، ولقد وصفت لي حال الدنيا فأحسنت الوصف، فأنا أرى الآن فناءها وزوالها، وقد زهدت فيها؛ لأنّها لا تساوي شيئاً، فهي أوهام وخيال وسراب وظلال وكلّها إلى زوال.

كلمات
9 786144 642894